أليس هذا غريبًا؟!

آمال الديب

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا 8، مدخل 1

هاتف: 1003288596 (0020)

بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

أليس هذا غريبًا؟!

آمال الديب

الطبعة الأولى، القاهرة 2020

تدقيق لغوي: آمال الديب

تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة

غلاف: عمار جمال العبد

رقم الإيداع: 22821 / 2020

I.S.B.N | 978-977-6794-62-7

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

آمال الديب

أليس هذا غريبًا؟!

(رواية)

دريم بن
للترجمة والنشر والتوزيع والطباعة

إهداء

إلى أحمد..

،،

لعلَّ في وجودك الآن
عزاءً مناسبًا عن معاناة عشرين عامًا،
هي نحو نصف عمري؛
عشتها بحلوها ومرِّها
واختلالاتها الكثيرة.

آمال

فراشي البارد يعجز أن يحتويني في لياليَّ الحارة.. بلا أنفاس رفيق تطرد عنه البرودة وعنّي، وكأنَّ التأصيل للوحدة يبدأ من تلك البقعة المظلمة في فراغ الكون، وكأن هذا الغائب يستحيل تدريجيًّا إلى أيقونة مُطفأة لا يُرجى منه مؤازرة ولا يصلح لتمثيل دور السند، ولا يُنتظر منه عون ولا نتفة مدد!

كان دائمًا اختياري الأول، وفي أغلب الأحيان لم يكن يستجيب، حتى بدأت أدرك أنه غير موجود سوى في خيالي.. سمحت لآخرين مزاحمة تلك المكانة التي كان متفرِّدًا تمامًا في شغلها، لا صديقات ولا إخوة، ولا أصدقاء ذكور على الأخص، تنفيذًا لروح التسلُّط التي كانت تنطلق في أفعاله أضعاف ما كان ينطقها.

لطالما تألَّمت بافتقادي ولوعتي في غيابه حتى استحالت لوعتي ذهولًا صار مع الوقت أقرب إلى التبلُّد؛ أتحرَّق رغبةً واشتياقًا إلى الحضن (في المطلق)، وحين يظهر هو فجأةً بعد انقطاع أكون قد استحلت إلى جثة مفرغة.. تحاول تلك الروح المعلَّقة في أقصى أعماقها أن تتنفَّس بلا جدوى!

سئمت ذلك اللاوجود الذي اختار أن يجعلني فريسته طوال الوقت.. وأخفقت في تجاوز وجوده في حياتي، بالضبط مثلما أخفقت في الاحتفاظ بتلك الحميمية التي كانت بيننا.. يومًا ما!

دعني أصارحك الليلة يا حسن أنه ما عاد اختيارًا أوَّل، ولا حتى ضمن قائمة اختياراتي بالأساس!

أعلم أن رسالتي وصلته قبل أن أحرِّرها، بل إنه ليس بحاجة إلى قراءتها ليعلم ما وضعني فيه.. لم أعد أنا أيضًا بحاجة إلى وجوده، بل إلى لا وجوده في حياتي.

كان عليَّ أن أخمِّن هذا في العام الأول، وأن أنزع تلك الصفحة من سنواتي التي كانت عجافًا، ثم ازدادت عجافتها وبرودة أطرافي خلالها.

في البدء كانت الآهة..

كنت لأكثر من ثلاثين عامًا هي ما يقارب ثلثي ما عشته على تلك الأرض، أعشق المغايرة، فكلُّ يومٍ يمرُّ بجديد أو في الطريق إلى جديد، كان معنى حياتي في الحركة والخروج والقفز و(التنطيط)!

لست أدري ماذا انتابني حين كسرتُ حاجز الأربعين، وكأنَّني صرت أجنح إلى السكون، والبيت خيرٌ من الخروج، وغرفتي خيرٌ من غرفة المكتب، وفراشي خيرٌ من أي مكان، وكأنِّي أتَسَلْحَفُ مع مرور الوقت وأستلذُّ ذلك الشعور، كأكبر مكافأة يمكن الحصول عليها خلال شهر كامل، حتى وإن تضمَّن ذلك الشهر رحلةً إلى الإسكندرية (مدينتي المفضَّلة سابقًا، قبل الأربعين ربَّما)، أو لقاءً يجمع أقرب الأصدقاء، أو سفَرًا إلى مكان أحبه (كنت أعشق فكرة السفر، قبل الأربعين كذلك).

وأما هنا في تلك المساحة من العمر فها أنا أضبط نفسي متلبِّسةً باختلافٍ، وربما بكمونٍ غير طبيعي، لم أعهده في نفسي من قَبْل القرار في تلك الشُّرفة التي أوشك أن أصل إلى منتصفها، فلو أكملت على تلك الوتيرة سأصير قوقعةً تحيا في صمت لا يتخلَّله سوى نوبات كتابة متقطِّعة، قد لا تصل إلى أيِّ آخر في هذا العالم، تحكي عن ذلك الكائن الوحيد الذي لا يهدأ في تلك الرحلة، وهو ما يطلقون عليه (الروح)، فروحي ثائرةٌ مثلما كانت وربما أكثر، ما زالت في حاجةٍ إلى الدفء والحضن والرفيق، إلى الفوران والذوبان والرقص، ما زالت في شوقٍ وشغفٍ إلى السفر والسَّمَر والحواديت، وكأن جسدي يسير بها في طريقٍ مغايرٍ تمامًا لما تطمحُ هي إليه، وقد صرتُ فضاءين يخالف كلٌّ منهما الآخر، كقطبَي مغناطيسين متشابهين.

هل سأبحث عن شخص مُتوهَّم، أتبادل وإياه حديثًا حرًّا بلا أعباء ولا التزامات؟ دون مطامع ولا مطامح؟ ودون انتظارٍ للقاء متوقَّع أو رغبة لائحة في أجواء الحوار، لو فعلتُ فلن أسأله عن اسمه ولن أدعه يطلب اسمي، سأحدِّثه عن رسائل كافكا إلى ميلينا؛ ذلك اليهودي المتشدِّد الذي اكتشفت كم أشبهه، نعم أشبهه هو لا محبوبته، أشبه رغبته في التهيُّؤ المستمر للحب، وانصهارَه حين يُشبِع حاجات الجسد، وتوحُّدَه برفيقته ليومين أو ثلاثة أيامٍ متصلة دون انقطاع، وتلك الطقوس المرعبة لوحدةٍ يعانيها كل مساءٍ لأنه بلا رفيقٍ حقيقيٍّ إلا تلك الرسائل المتقطِّعة، وإدراكي بعد كل تلك السنوات أن بطل روايتي الأولى كان يحاول أن يتقمَّص شخصية كافكا، وظل زمنًا غير قصير محتفظًا بصورة كافكا على بروفايل حسابه الشخصي على موقع الفيسبوك!

سأحدِّثه عن (علَّامة)، وذلك الكاتب الفاجر الذي ملك قياد كل هذا العدد من الشخوص في رواية شديدة التكثيف شديدة القِصَر، وسافر بي من الصعيد إلى قرب البحر في رحلةٍ محفوفةٍ بالأوجاع وبالفقد، وكم كان أسهل طرق الوصول لديه هو الموت!

وبمجرد انتهائي من عرض رأيي فيما يكتب تورَّط بمشاعر مبهمة تجاهي، اشتهاني كأنثى يضمُّها إلى قائمة مضاجعاته، لكنه حاول القفز إلى عالمي من نافذة الحب، الحب الذي ظلمناه منتهكين قدسيته بلا أدنى شعورٍ بالذنب، وعند أول بادرة رفضٍ منِّي لاستجابةٍ جسدية كان قرارُه الحاسم أن يبتعد حتى يلملم أوجاعه ويعاود الظهور فيما بعد (كصديق مثلما طلبت أنا منه أن يكون)، مصدِّرًا إياك في مشهدي وكأنَّه يفعِّل نوعًا من الوصاية عليَّ، وليس من المتوقَّع عودته ربما إلى الأبد!

لا أدري أيَّ جهاز تحكُّمٍ يستخدمه ليحوِّل مشاعر الحب المزعوم أو الرغبة البادية في كل حرفٍ كان يكتبه إلى صداقةٍ مُنزَّهةٍ عن أمور

الجسد ورائحة الالتحام المنشود وبالأخصِّ أنَّه لم يُلبَّ، فما أفظع احتياجٍ لم يُلبَّ ورغبةٍ لم تُشبع!

كنت أشعر يا حسن أننا مفارقان وإن استطالت الساعات، إذ كان هذا الصديق المشترك هو كلُّ ما يُفترض أنه بيننا، وتبخَّر عند أول محكٍّ، تاركًا لنا مساحةً من الزمان والمكان ليقرأ كلٌّ منا الآخر؛ الآخر الذي تسرَّب كذرَّات الهواء الصباحي بين عروق الأحداث المتشابكة!

تراك تذكرني يا حسن؟ كم أتعجَّب من تلك الفجوة التي تركها غيابكما رغم زحام الأحداث والتفاصيل، أودُّ لو أنني أعترف لك عن ذلك الشغف الذي ظلَّ يلازمني لفترة ليست بالقصيرة، وقناطير الوحشة إلى ذبذبات ذلك الصوت الذي اخترق شغاف القلب ليستقرَّ بين أضلعي أيامًا لا أنساها، محض أيام!

أغمض عينيَّ وأستدعيه حبيبًا عاريًا، بمشاعر غضَّة وجسد متشوّقٍ طوال الوقت، برغبة لا تذوب، ولهفة لا تغيب، وروح لا تكل.

لسوف أقرأ يا صديقي الفراغ الكبير الـ(يساوي) صمت رسائلنا كمساحةٍ لاقترابٍ من نوع آخر، فبداخلي بوحٌ غزير، بلا أمل في التخلُّص، ضبطت نفسي متلبِّسة بالحاجة إلى شخص حميم يلعب في حياتي دور الجنديِّ المجهول الذي لعبتُه في حياة آخرين تخلَّصوا مني جميعًا، بعد أن ضججتُ بفضلاتهم التي أثقلت أذنيَّ، إلا واحدًا يوشك أن يفعل، قد تكونه أنت باقتدار لأيامٍ معدودة!

فكل إنسانٍ بحاجةٍ إلى آخر في الظل، يشكو ويبكي ويصرخ ويتجرَّد من ربطة العنق والزي (الفورمال) أمامه، مكتفيًا بشورتٍ قصير بلا ملابس داخلية (أو مكتفية بـ(بيبي دول) لو كانت امرأة) لئلا يعوق انسياب روحه/ها وجسده/ها وأفكاره/ها أمام من وقع عليه الخيار ليصبح جنديه/ها المجهول، ذلك الذي يتورَّط في عشق وجوده بعد

فترة، دون أن يدري أنه نسي شحن رصيده لديه من الصبر والطاقة حتى يفتر شغفه مع الوقت فيستحيل شخصًا آخر!!

أولهما لا يدري أن إدمانه وجود الجندي المجهول يستحيل حبًّا، والآخر يجتهد ليستجمع كلَّ قواه معلنًا رغبته في الفرار!

الآن أستطيع أن أفهم يا حسن لماذا تخفي المرأة سنها بعد الأربعين! فقد كنت في عشرينياتي وثلاثينياتي كذلك امرأة مرغوبة باستمرار، ولولا الرقابة الذاتية حينًا والخارجية أحيانًا لكنت قد تعرضت لأضعاف التصريحات بالرغبة في الارتباط أو محاولة الحب في المطلق التي كنت أصادفها بشكل مستمر.

والآن وأنا موشكة على منتصف الأربعين أستطيع أن أعترف بهدوء وشفافية مع الذات أنني ما زلت مرغوبة من آخرين ولو بشكل أقل، وإن اختلفت الفكرة من مجرد رغبة جسدية محمومة أو رغبة في الزواج للظفر بتلك الغزالة الشاردة أو المهرة الجموح إلى فكرة الاستقرار أو بمعنى أدق القرار في حضن امرأة (أم) بطبيعتها، فالرجال مساكين بالفعل، وليس هذا تعاطفًا أو انتقاصًا من أيهم، وإنما هو إقرارٌ بالواقع، فذلك الأسد الهصور الذي يفزع الغابة بزئيره إنما هو في جوهره شبل يبحث عن الأمان في حضن لبؤة تحل محل أمه التي فقدها في مرحلة ما من مراحل حياته.

فالرجل الذي يطالبه مجتمعه بارتداء رابطة العنق والجاكت الفورمال طوال مواجهته مع العالم فإنه بالضرورة يطمح في فضاء امرأة يمارس خلاله طفولته وشغفه وانطلاقه وكل مظاهر التحلل من القيد الذي يحيط بعنقه على الدوام.. والمرأة هي الكائن الجدير باحتوائه مثلما وهبها الله نعمة احتوائه جنينًا ثم طفلًا ثم رجلًا، وإنما كل رجل يبحث عن أنثى تكمل نقصه فهو يبحث عن نموذج آخر من

أمه بعد إدخال التعديلات التي توافق ما صار عليه حين أنضجته التجربة.

خلتُ لوهلةٍ أنني حين ألتقيه سأضمُّه إلى صدري ضمَّةَ أُمٍّ لشدِّ ما طال شوقها إلى ابنها البكري، ليس لزامًا أن يتحقَّق ما تمنَّيت، ولم يتحقَّق، ولكن يكفي أنَّني تذوَّقتُ طعم اللحظة وكأنني فعلت!

أتظنُّ أن هؤلاء المحيطين جميعًا كانوا سيَقِفونَ حائلاً في وجه عناقٍ يجمع رُوحينا؟ هل يعرقلون حضنًا لا ينتهي ولا يذوب بين أعيننا؟ هل يمنعون قلوبًا لم تتقن سوى الخفقان أن تزداد شوقًا إلى لقائنا وفقط؟! نحن من منعناه، وراح كلٌّ منا يدَّعي الانشغال عن الآخر، أو قل إن صغارنا كانوا ككافيين منبِّهٍ يفتح أعينَنا باستمرار لواقعنا القاتم.

والصبح الذي كان موعدنا يبتعد تمامًا كشبحٍ يخشى النور! والأرق الذي سكن أجفاني لليالٍ مستطيلة تمدَّد مثل عجين يابس تحت نشَّابة تضغطها يد ثقيلة، والخيانة قرار مُتراجَعٌ عنه تمامًا في الواقع وإن طاوعتني نفسي لارتكابه في خيالي!

وأما ذلك الآخر الهائم في أحزانه وخيالاته، فإنه يتراجع تدريجيًّا، وكأنه يفسح كل الطرق لآخر أو آخرين يحتلونني، اعتدت أن أحيطه بكل صنوف الاهتمام والحب والشغف والأمومة، فلم يفترض أن كل طَرقَاتي على بابه الموصد بعد أن قُوبِلَت بالتجاهُل ستقلُّ مع الوقت حتى تنتفي، وأنني سأبحث عن بابٍ آخر أسدِّد طَرقاتي إليه، أيًّا كانت حالة ذلك الباب حينها، المهم أن أكفَّ عن الطَّرْقِ على بابه العصيِّ بالتحديد!

يتذكَّرني حين أبتعد خطواتٍ، فيقرِّر أن يبحث عنِّي فيكتشف أنني أفقتُ بعد فوات الأوان، وأن الحب الذي كان يزوِّدني بالصبر قد خَفَت

هو الآخر حتى خبا أو أوشك، ولم يبقَ لي سوى تذكارٍ أسود عوضًا عنه وعن كل ذكرياته، فالوجع يطيب، والغربة تُعتاد، والحبُّ الذي كان الآن يبهتُ وإن ظلَّ شبحُه أو طيفُه!

لقد استحلتُ إلى ما يشبه جلطةً بحجم ثمرة فراولة متوسِّطة في جدار قلبٍ ينذرني كلَّ فترة أنه ليس بخير، تتقارب المسافات الفارقة بين إنذاراته حتى تكاد تصير متصلة، وغيمة دموعٍ لا ينضب لها معين، وكأنها تختزن كل المياه التي أشربها لحسابها وحدها، آهٍ يا صديقي، لست أدري ماذا ينتظرني في هذا العالم، ولا متى ستملُّ أنت أيضًا حديثي البارد مثلي، ربما أنت كذلك الآن بالفعل!

ها هو صالح، صديقنا المشترك يحدثني عن انعدام المعنى، وإرهاق الروح، وزيف الهيبة. إنه قطعًا لا يعلم أنني أعدُّ أيامي بمتعها الجزئية، وأحسب أن ثمرة يوسفي بضَّة الفصوص كوجنتي صديقتي الثائرة حين كانت أقرب إليَّ قبل الثورة، من أهم حصاد المتعة يومًا ما، بل إنه لا يدري أنني حين أترجم آخر مائة جنيه من راتبي الشهري يوم الثاني من فبراير إلى بضعة كيلوجرامات من اللحم والفواكه الطازجة ولا سيما الفراولة واليوسفي، يعتريني شعورٌ بالفخر وبلوغ النشوة، كأقصى ما أطمح في تحقيقه حين ألتقي زوجي على فراش المتعة في لقاء استثنائي.

إنه لا يعلم أن شعوري بالدفء بعد عددٍ غير قليل من المحاولات لأُلفَّ جسدي مثل ساندوتش في بطانية ذات وجهين وأخرى مفردة يمثِّل لي درجة متقدِّمة من درجات المتعة؛ فالرضا والمتعة والانتشاء وجوهٌ أخرى للسعادة.

آه لو أنه يُجرِّب أن يستعير عينيَّ ليكتشف أن الهالة التي تحيط قمر الرابع عشر من الشهر الهجري فضَّةٌ ذائبةٌ يمكنه صكُّها إلى

خواتم على مقاسات أصابعي، وحين يهديني إياها يحيا المتعة في بريق أعيني الفرحة، ويحتضن سعادتي بين راحتيه!

بأعينَ ذابلةٍ لشدَّ ما بكيتُ أحاول أن أستوضِحَ ضوء النهار، النهار الذي يسكن داخلي، وليس ذلك الذي يأتي ويغيب، ترهقني الرؤية والمسافة بين نهاري وذلك الحضن الذي يغيب لياليَ باردةً وأيامًا ملائمةً تمامًا لانسياب البوح، وحين يفكِّر في العودة تكون بقايا نهاري في حالة تهيُّؤ للغروب، فلا يعرف أيُّنا المحبوس في ذاته، هو أم أنا، أم كلانا؟

كلٌّ منا مكبَّلٌ بأغلاله الخاصة، كلٌّ منا تنتظره وحوشه منزوعة القلب لتلوك كل جوارحه بين فكوكها الضارية، كلٌّ منا يأكله الكتمان خشية افتضاح تورُّطه بمشاعر لم يعلن عنها، ولن.

كلٌّ منا يعتريه الوجع لأنه مختنقٌ بالرغبة في التحقُّق مع من أدمَن مؤخَّرًا البوح في حضرته، وحرمته منه الظروف.

يا لتلك القبضة الحديدية التي تهشِّم عظم كلينا فتفرِّق ما بيننا إلى الأبد! آهٍ لو أنهم تركونا نراكم عددًا ولو قليلاً من الذكريات! فلماذا استعجلوا التفريق بيننا قبل أن ينضب معين بوح كلينا إلى الآخر، ولماذا حاصرتنا أسئلتهم التي لا تنتهي واتهاماتهم التي تتكاثر حولنا كقطراتٍ ثقيلةٍ من مطرٍ كبريتيٍّ يُلهِبُ جلدَ من يُصادِفُه!

نصبوا لنا المشانق بلا جريمةٍ أو جريرةٍ اقترفناها، وها هي الخوازيق تُدقُّ لنعتليها في صمتٍ ورضوخٍ دون أدنى مقاومة، وكأننا نشاركهم في التمثيل بجثث كلينا.

والسماء تعاقبنا على ذنوبٍ أخرى جنتها أيدينا ونفضناها منها وربما نسيناها، لكنها أبدًا لا تنسى وإن منحتنا الغفران!

كم نحن مساكين في هذا العالم، والواقع أشد وطأة ممَّا نظُنُّ حتى أنه يحرمنا أن نحلِّق في أحلام اليقظة التي نعشق الهروب إليها قدر

استطاعتنا، فيعترينا شعورٌ بالحبس الاضطراري الذي يمنعنا الفرصة لأن نستغرق في النوم فنمارس فضيلة الأحلام التي تطهِّرنا حتمًا من أوجاعنا الممتدَّة!

***

أخبرني يا حسن هل فضحتني عيناي ونمَّت على عشقي لهذه المرأة فستقية العينين؟ إن لعينيها مزيجًا من حبات اللوز والفستق المقشور، تراني محيَّرًا في لون عينيها، فما بالي ببقية التفاصيل؟! ساعدني يا أخي، فأنا أريد أن أعرف عنها كل شيء: طولها، وزنها، وحتى مقاس خصرها وصدرها والهضاب المرتفعة خلف ظهرها.

كنتَ صديقي المقرب، ولا تزال، أعترف أنك مرآتي ومنقذي حين أقع في يد زوجتي متلبِّسًا بعلاقة مع أخرى، وهي لحُسن الحظ حتى الآن لا ترفض لك كلمة بحكم القرابة التي تجمعكما، ولأنك تستطيع احتواء ثورتها ضدي، فرحتُ أعدِّد علاقاتي وأعبُّ من المتع دون قلق، فأنت سندي وفي ظهري ستشدُّ أزري وتبرِّئ ساحتي أمامها بما أوتيتَ من مقدرة هائلة على الإقناع.

عهدتُك مخلصًا يا صديقي لسنواتٍ طويلة، أكثر من نصف أعمارنا واستحققتَ ولائي لك عن جدارة وعقل وحكمة، أنت الوحيد الذي تعرف أن كل علاقاتي كانت جسدية بحتة، حين كنت شرهًا لا أشبع ولا أرضى بسهولة.

في ظهيرة باردة أخرجني صوت هاتفي المحمول من أفكاري المتلاحقة بلا انتهاء، فتحت الخط مرحِّبًا بالمتصل الذي لا أعرف هويَّته، فإذا بصوت أنثوي قد خرج لتوِّه من الجنة يخطف روحي ثم يغيب، وكأنَّني تعرَّضت لحالة سطو على حين غرَّة، حاولتُ الرجوع إلى أفكاري التي قطعها الاتصال الهاتفي فلم أتمكَّن من ذلك، بل غرقتُ في بحرٍ آخر بأفكارٍ أخرى مع كائنٍ مجهول الهويَّة لا يربطني به سوى صوتٍ حفَر في قاع رأسي نفقًا ثم مضى!

...

ثلاثة أيام مرَّت قبل أن تعاود الاتصال طالبةً مني استيفاء الأوراق المطلوبة لاستضافتي في ملتقى ثقافي بالقاهرة العتيقة، بدأ عقلي الباطن يختزن ملامح ذلك الصوت الملائكي شيئًا فشيئًا ويتفنَّن في تطويل المحادثة بضع ثوانٍ كل مرَّة، حتى أنَّني تعمَّدت ألا أوافيها بكل ما طلَبتْ من أوراقٍ دفعةً واحدة ليظلَّ الحديث بيني وبينها موصولاً، فكنت أتفنَّن في الاحتفاظ باتصالاتها أطول وقتٍ ممكن، وكأنها تخرجني من حالة التعامل مع المجرمين وأرباب السوابق الذين ألتقيهم يوميًّا بحكم عملي، إضافةً إلى أصوات العساكر وزملائي الضباط والسيد مدير الأمن حين يكون موجودًا، ورغم أنَّنا نحظى مؤخرًا بعدد من الضابطات الماهرات فأنا أشعر أنهنَّ مثلي تمامًا ومثل باقي زملائي الرجال، ربما حياة (الميري) تصنع سمتًا لكلِّ من يمتهنها غير مفرِّقة بين الذكور والإناث، القالب الذي تضعك فيه مهنتك صنمٌ يدور حوله جميع المنتمين إليها، اللوائح والقواعد هي رقم واحد ورقم ألف!

أدمنتُ صوتها، ورحتُ أتخيَّل ملامحها المتوافقة مع هذا الصوت الذي أسرَني بكل معاني الكلمة، ظللتُ أتواصل معها حتى موعد الملتقى الذي عجزتُ عن إقناع رؤسائي في العمل بالذهاب إليه ولو ليومٍ واحد، فكانت فرصةً لجذب تعاطفها معي ومع ظروف عملي التي تمنعني من ممارسة الحياة كأيِّ إنسان عادي، ونجحتُ في الاحتفاظ بها كصديقة على بعد خطوات، أسأل عنها كل أسبوع، حتى طلبتْ مني أن تقرأ روايتي التي لم أنتهِ بعد من كتابتها إن كانت لديَّ الرغبة في ذلك، وبلا أدنى تردُّد أرسلت إليها الرواية وانتظرتُ بصبر نافد أوَّل انطباعٍ لها عن قراءتي، كنت أشعر بالانتشاء ووافر الرضا كلَّما أرسلتْ إليَّ سطرًا أو أكثر عن فصلٍ أو مقطعٍ أو صفحةٍ من الرواية، سواء كتعبيرٍ عن انبهارها ببعض الشخصيات أو شغفها بالأماكن التي كنت

أصوِّرها بامتياز في رأيها، وكانت تضحك ضحكة ملؤها البراءة والشغف كلما قلت لها "يا هانم"، ربما لم تدرِ أنني أراها في خيالي كذلك، وفي الحقيقة إن لصوتها وقعًا لا يمكن أن يكون إلا لهانم، وأظن أنها ستكون بطلة في كل كتاباتي المقبلة إن كان لي نصيب في كتابة جديدة وأنا بعد لم أنتهِ من تحرير روايتي الثانية رغم مرور ما يقرب من خمس سنوات على كتابتي إياها!

ظللتُ متشوِّقًا إلى كلِّ حرفٍ تكتبه، وحين انتهتْ من القراءة كتبتْ لي أنَّها مستفزَّة ضدِّي ومصدومةٌ من تلك النهاية التي اخترتُها لبطلة الرواية التي بدأتُ الحديث عنها في الصفحات الأولى وكأنها أحد الملائكة وصوَّرتها آخر مشاهد الرواية كشيطانٍ رجيم! ضحكتُ من قلبي على ذلك الحماس والإخلاص في نبرات صوتها وهي تحدِّثني عن الرواية، بدأتْ تطلبُ مني أن تقرأ كل ما كتبتُ حتى أرسلتُ إليها روايتي الأولى التي حازت جائزةً دوليَّةً مهمَّة منذ سنوات.

بعد أن قرأَت الرواية الأولى شعرتُ أنَّها حلَّقت بي إلى عنان السماء، أقسمَتْ لي أنني أفضل من كتب الرواية في السنوات العشر الأخيرة باقتدار، وأنني مقصِّرٌ في حقِّ نفسي لأنني أُهدِر كلَّ هذا الوقت بعيدًا عن الكتابة.

كان اهتمامها بكتابتي، أي بجزءٍ منِّي، ففسَّرتُها لنفسي أن هذا الاهتمام بالضرورة يشملُني كإنسان، فرحتُ أنسِجُ أحلامي وطموحاتي في الاقتراب منها واحتضانها، بل وارتشافها.

قُلْ ما تريد، قل إنني نزِقٌ وشهواني، ولن أرفضَ قولَك لأنك أكثر من يعرفني على وجه الأرض، المهم أن تساعدني يا صديقي.

حدِّثها من أجلي، احكِ لها عن ميزاتي التي تعلمها بحكم صداقتنا، قرِّبها مني وأُشعِرها أنني أحبُّها وأسهَرُ الليل لأجلها أفكِّر في ذلك اليوم

الذي يضمُّنا معًا، وفي ذلك الحضن الذي أنتظره، وعالمها الذي أغواني وأسرني، فبتُّ أتخيَّل كلَّ ذرَّة في كيانها، كلَّ آهة تنطقُها، كلَّ ضحكةٍ تطلقها، كلَّ لمسة تمنحني إياها أو تسمح لي بها، كم أتعجَّل اختلائي بها، فافعل شيئًا لأجلي.

سأعترف لك أنني ما زلتُ غير واثقٍ من مشاعري تجاهها، ولا أزعم أنني أحبُّها أو أن رغبتي فيها تفوق ولعي بجسدها الذي فتنني في لقائنا الوحيد، لكنني أشعر أنها ليست كأولئك النساء اللائي عرفتهنَّ وعاشرتهن واشتهيت أجسادهنَّ، إنها طعمٌ آخر، وملابسات ارتباطي بها مختلفة تمامًا عمَّن سواها، لم أكن أظنُّ أن أذنيَّ ستعشقان قبْلَ قلبي، بل وقبْلَ عينيَّ، فقد ارتبطتُ بصوتها حتى صرتُ أنتظره كموسيقى (يانِّي) التي طالما راهنتُ نفسي أنَّها أصواتٌ لها روح وليست مجرَّد آلاتٍ جامدة، كما لم أكن أظنُّ أنني سأجد امرأةً يبهرني عقلُها مثلما حدث مع هديَّة، فلم أكن أرى في النساء سوى اللذة وشبق الوصول، كان اختلاف أيهنَّ لديَّ يعني قدرتها على إمتاعي بجسدها أكثر ممن سواها، لم أكن أظن أنني سأجد امرأة لها عقل قادر على محاورتي ومناقشتي، بل وإقناعي في بعض الأحيان بأفكار مغايرة عن قناعاتي التي تكوَّنت عبر سنوات من القراءة، مستعرضةً عددًا من الكتب لآخرين لم أقتحم عوالمهم ولم أقرأ لهم، ولم أكوِّن عنهم رؤية تمكِّنني من خوض سجال متكافئ، وإن بدت في كثيرٍ من الأحيان مبهورة أمام ثقافتي النهمة وانفعالي ببول أوستر حتى إنني أجعل صورته خلفية لهاتفي الجوال من كثرة ما ارتبطت به، وانبهرت بكتاباته وجرأته التي لطالما أحسن توظيفها في (اختراع العزلة) و(ثلاثية نيويورك) و(حماقات بروكلين)، وسعدت أيما سعادة حين وجدت أنها قد استجابت لحماسي وراحت تقرأ آخر رواياته وتوافيني برأيها في جرأة وبلا مجاملة لتوحُّدي

بكتاباته، وترى أنني مفتون أكثر من اللازم، وأنني قد أخطأت في حقها بأن جعلتها تبدأ التعرف إليه بقراءة آخر أعماله (1234)، وأنني بذلك قد أحرقت أعماله السابقة أمامها، وأنني كان الأحرى بي أن أنصحها بالبدء في قراءة (اختراع العزلة) أولًا، لكنني صدمتها (كما قالت حرفيًّا) لأنها اكتشفته عاريًا!

بالفعل رواية (1234) هي قمة هرم أوستر، وربما أكون قد تسرَّعت لأنني حدثتها عنها وهي بالفعل غريبة عن عالم الرجل، ولكنني أظن أنها قد استمتعت بالرواية واكتشفت عالمًا مختلفًا عن محيط قراءاتها الذي حدثتني عنه كثيرًا، وأعترف أنني لم أهتم بمن قدمتهم لي مثل اهتمامها هي بمن قدمتهم لها، وإن كنت شعرت فيما بعد أن الكِبْر قد منعني أن أستجيب لأيٍّ من اقتراحاتها، وهذا في حد ذاته دليل على أنني رجل رجعي ومتمحور حول ذاتي، وأريدها هي أيضًا أن تفعل، ولم أهتم بذلك التشابه الذي سجَّلته أمامي بين (1234) لأوستر، و(كائن لا تحتمل خفته) لميلان كونديرا، وكذلك اتجاه إيرفينج في كتاباته التي لم تجد من يتجرَّأ ويتصدى لترجمة أيٍّ منها، في تعرية النفس الإنسانية إلى هذا الحد الموجع الصادم أحيانًا، لا سيما أن عشقي لأوستر جعلني متحيِّزًا له على الإطلاق، وقد أكون، مثلما قالت، مبالغًا.

***

حسن! من أنت يا ترى، ولِمَ أنت ضمن قائمة الأصدقاء على صفحة زوجتي على الفيس بوك؟ ليس بينكما أصدقاء مشتركون، ولا يبدو أن هناك أي اهتمامات مشتركة تجمع بينكما، فماذا تفعل في حياتها ومن أين اهتدى كلٌّ منكما إلى الآخر؟!

ملازم أول يخدم في مدينة نائية، يشير تاريخ ميلاده إلى أنه قد تأخر كثيرًا عن دفعته في الترقية، ولا يبدو من كل صوره أنه يفعل شيئًا في حياته سوى العمل والاستجابة للرغبات الحياتية وإشباع شهوات البطن والجسد والنوم! ماذا يفعل على صفحة الكاتبة هديَّة العابد، المعروفة في وسطها الثقافي أن كل همها في الحياة الكتابة والعمل ودائرة أشخاص ضيِّقة جدًّا تكاد تقتصر عليَّ وعلى ابنتيها وابنها الوحيد، وعدد من الصديقات والقريبات!

أليس هذا غريبًا؟!

هل سمحَتْ لغرباء أن يدخلوا حيِّز حياتها أثناء تغيُّبي عنها بضعة الأشهر الأخيرة؟! هل بدأت تغيِّبني من مسرح أحداثها حتى إنها لم تعد تعبأ بغضبي أو ثورتي حين أكتشف رجالًا لم يكونوا من قبل حولها وقد سمحت لهم أن يخترقوا عالمها بكل هذا الرضا والتسليم!

وماذا يمكنني أن أفعل وأنا على الأعراف في حياتها لا هي تسمح لي بدخول جنتها التي كنت مَلِكَها الوحيد، ولا هي تلقي بي إلى جحيمها المستعرة في اعتراف نهائي برغبتها في إبعادي عن حياتها، وحتى لو قرَّرت أن تفعل فلن أتزحزح خطوة أخرى بعيدًا عنها، بل إنني سأقترب رغمًا عنها وعنك وعن كل المحيطين بها، ولو دعاني ذلك إلى الإعراب عن وجه آخر في شخصيتي حتى هي لم تَرَه بعد!

...

وماذا أيضًا أيها المتطفِّل على حياة زوجتي؟! وكيف أطيق الحديث عنك بتلك الحميمية التي أقرؤها بين سطورها!

***

اسمح لي يا حسن أن أعلن أنّي منذ الآن، وأمام العالم كله، أعتذر بشدة عن هذا الدور، لن أصبح أمًّا إلا لأبناء شقُّوا سبع الطبقات ببطني شبرًا ليجيئوا إلى هذا العالم! لن ألعب دور الأم لأيٍّ منهم، فليدَعوني أتقوقَع وحدي، وأكفَّ عن الغمر لئلا أغرقهم جميعًا، سأحلِّق وحدي نحو سماءٍ قد ترحمني، سوف أحاول يا صديق ألا أحزنَ ثانيةً على أيٍّ منهم!

نعم، أريدُ رفيقًا يحتويني، يجمعُ كلَّ خيوط الدمع التي أشعرُ بانحشارِها بين عينيَّ وحلقي في قربةِ ماعز فتيَّة ويظلُّ يخضُّها حتى تنعزِلَ قطراتُ الوجعِ عن ماء أعيني الذي قد يصلح لتمليح لبِّ البطيخ الذي ادَّخرَتْهُ زوجةُ أبي طوال موسم الصيف!

بل أريدُ حريةً تجعلني أملك أن أكتب أنني ما عدت أقدِّس الزواج، ولستُ فرحةً بلقب متزوِّجة، حتى أنني قد أفتعل كثيرًا من المشكلات الفظيعة لأسباب تبدو تافهة في نظر شريكي الذي يتهمني بأنني قد صرت امرأة (نكدية) تمامًا كالأخريات، دون أن يقرَّ أنه استباح قضم كبدي نيِّئة، وجعلني من الخمسة بالمائة المرشَّحين لعيادة أطباء القلب والأوعية الدموية خلال العامين الأخيرين!

أريد أن أعترف أنني أحاول التدرُّب على الأنانية وأجدُّ في تدريبي رغم فشلي المستمر في تحقيق تلك الحالة التي أودُّ إدراكها!

ولسوف أبكي كثيرًا تلك المرة، أو تدري لِمَ؟ لأنفق كل ما في جعبتي من دمع، ربما أتجلَّد أعوامًا طويلة إلى أن يتجدَّد المخزون بأعماق أعيني منه، فالوحدة ثعبان في الحلق يبخُّ زعافًا، ولا أنجح في التداوي بلا بكاء، وبلا بوح، وبلا رجُلٍ في الخلفية!

...

سأمنح ذاتي كل الفائض من هذا الحب، وأجرِّب أن أتبادل معها الفرحة وحدي، فقد كنت أحلم أنني تخفَّفت من كل أعبائي وثقلي أمامك ورحت أراقص روحه التي كنت أعشقها بين سماء الدنيا وفضاء الأرض كطيفين بلا كتلة، سأعترف الآن أنني تغيَّرت، ومللت تجاهله طوال الوقت، واستبدَّ بي وجعٌ لانهائيٍّ وانحفرت في حلقي غُصَّة عنوانها الوحشة والوحدة!

خاصمتُ صديقاتي كي لا أتألَّم مرتين إضافيَّتين بعد ألمي بحرمانه، مرةً وأنا أحكي لإحداهن، والأخرى حين ألتقيني في سجن الذات وحدي، بلا رفيق أحتمي بحضنه، ودون أنيس يقيني أطياف هؤلاء المنتظِرين على عتبات العالم أيَّة فرصة للإيقاع بي لمائة سببٍ وعلَّة!

انطويت على غربتي ونزفي دون بادرة أمل في تغيير قريب، أو حلٍّ لأزمتِه التي تتفاقم يومًا بعد يوم، فراح يأكل مني القهر والذبول بلا رحمة، فبدأت أجرِّب أن أكتب أي شيء فهجرتني الكلمات، وأمعنَتْ في إذلال روحي بلا مبرر واضح، وهي تضيف إلى غربتي غربةً وأسى.

معاينة الفقد أهون كثيرًا من التعلُّق بخيوط واهية لأملٍ زائفٍ ومحاولة التأقلم مع انتظار جديد، وقادم يتحوَّل إلى حاضر باهت لا يشغله سوى انتظار، فتستحيل الأيام كلها انتظارًا لبعيد لا يقترب ولا يأتي أبدًا، ونفاجأ أن سنواتٍ مرَّت وأكبر إنجاز فيها هو الانتظار واعتياد وطأته كأنها ضمن طقوس إجبارية لا فكاك من احتمالها كل الوقت، كم كنت بحاجة إلى استنشاق عبق الحرية، والتخفُّف من ثقل المساءلة والتحقيق المستمر في اتهامات وهمية وواهية، وكأني أُغفِل كلَّ الأوجاع القابعة هناك في ذلك الركن بانتظاري، متجاهلةً سقف الحرمان المتغوِّل في النفس، وصومًا مستطيلاً ربما يقي الروح شيخوخةً إجبارية!

سأطلق العنان لكلِّ بوحٍ تكتَّمته لسنوات، وأنساب على السطور كأسيرٍ يذوق طعم النور مختارًا للمرة الأولى منذ أعوام، فيفضِّل أن يتعافى في هدوء، ودون بحثٍ عن آخر يحمِّله وجعًا مؤجلاً ولا اهتمامًا زائفًا لن يدوم.

لماذا ندمن الشات أو (الأونلاين)؟ إننا في الحقيقة نحتمي من وحدتنا العميقة بحميمية وهمية وأنس وسكن وهميَّين ولو من خلال نافذة الشات التي لا يعلم ما في قلب صاحبها سوى خالقه، لكنني الآن بحاجة إلى تواصل حقيقي، وإن على فترات، حتى أقلِّل البحث عن عالم زائف كثيرًا ما كنت أرتمي بين أحضانه وحين كنت أصدِّق نفسي كنت أكتشف أنني أحتضن الفراغ!

***

كنت أعشقُ الانسياب في حضور هديَّة يا حسن، أحبُّ أن أكتب لها عن كل المواقف والمشاهد التي تعرَّضتُ لها في الحياة، عن أهم القضايا التي مرَّت عليَّ في العمل، عن النساء اللائي عاشرتهن، وهنَّ كثيرات، دون شعورٍ بالخجل ولا التباهي، ولا حتى استثارة غيرتها، هو البوح وفقط، حتى عن تجربتي الأولى مع أمِّ صديقي وقد انتظرتني في الممرِّ المؤدي إلى غرفة الجلوس بعد خروج المدرِّس الذي كان يشرح لنا الدروس في بيتها، وطلبت من ابنها أن يشتري لها بعض الاحتياجات المنزلية من الخارج، وحين هممت بالخروج وراءه قالت لي: ''انتظر، سأكلِّفك بشيء آخر يا صالح، وظلت صامتة حتى تأكدت أن صديقي قد غادر البيت، ثم قالت: سأنتظرك غدًا في الخامسة مساءً، لأنني أريدك في أمرٍ مهمٍّ جدًّا، إياك أن تتأخَّر، ولا تخبر أي شخص عن ذلك ولا حتى أحمد ابني''. وعدتها أنني سأكون عندها في الموعد بالضبط، دون أن يعلم أحد شيئًا عن ذلك.

لم أفكِّر في الأمر وشغلتني أخبار كأس العالم عن التفكير في أي شيء آخر، لا سيما أنني كنت أريد العودة إلى المنزل لأشاهد مباراة الأهلي والزمالك في القمة، وظللت طوال الليل مع أحداث مباراة القمَّة التي ألغيت، وإن كان الأهلي قد كسب المباراة، لكنه كان فوزًا منقوصًا في رأيي لأنه فوز بحكم القانون.

حين ذهبت إليها في الموعد كانت وحدها تمامًا في المنزل، سألتها عن أحمد فقالت إنه سافر مع أخيه الأكبر إلى مدينة مجاورة حيث يسكن أخوالهما. أمسكَتْ بيدي وأنا أسير معها دون أن أفهم ما أنا مقبل عليه، فإذا بها تصطحبني إلى غرفة نومها، أحكمَتْ إغلاق باب الغرفة وخلعَتْ ذلك الروب الساتان الأحمر فبدا تحته قميص أبيض

بلا شيء تحته، بالكاد يصل إلى ركبتيها البيضاوين كباقي جسدها، بحمالات رفيعة تنتهي عند منتصف نهديها المدوَّرين استدارةً أقرب إلى البطيختين الصغيرتين منهما إلى أي شيء آخر، وعلى الرغم من أن جسدها غير ممتلئ فإن ضخامة نهديها هي أبرز ما فيه، جلسَتْ على طرف السرير تاركةً لعينيَّ الفضوليتين مجالًا للنظر إلى الحلمتين البارزتين تحت القميص وكأنهما ثمرتا عنب فيُّومي، ثم سألتني إن كنت جربت الرقص من قبل؟ فأومأت بعيني أن نعم، وخفضت رأسي، فقامت تتراقص وتدور حول الفراش ثم ضغطت على جهاز الراديو كاسيت فانطلقت نغمات كنت أعرفها جيدًا لأغنية (نعناع الجنينة) لمطربي الأثير (محمد منير)، وأمسكت بإيشارب ربطته أسفل خصرها وأسفل بطنها فانحسر القميص القصير عن مؤخِّرة مستديرة ذات فلقتين كبطيختين تبلغان نحو ضعف نهديها، وحين استدارت لتصبح في مواجهتي لمحت بين فخذيها لمعانًا يشبه فص خاتم، فرحت أحملق على اتساع عينيَّ وعيناها تراقبان نظراتي فوضعت إصبعيها السبابة والوسطى كمثلَّث يبرِز أمامي مبتدأ اللمعان فإذا بها تضع في ذلك المكان حلقًا فضيًّا ذا فصٍّ مدوَّر.

ظلَّت تستدعيني بصفة أسبوعية لعامٍ كامل، وكنت قد أدمنتها، وعرفت المتعة في فراشها، دون أن أفكر في سواها أو أتردَّد يومًا في لقائها، وراحت تدرِّبني على ممارسة الحب بكل صنوفها المختلفة وأنا ابن خمسة عشر عامًا، والغريب أنها قد اختفت بعد هذا العام، وكنت قد انتقلت إلى مدرسة ثانوية ولم يرافقني أحمد (ابنها) إلى نفس المدرسة لأن أباه قد عاد من السفر وانتقل إلى مدينة أخرى، وعرفت منه بعدها أن أمه قد ارتدت النقاب ولم تعد تخرج من المنزل لأي سبب.

...

جعلتني تلك المعرفة التي غمستني فيها مبكرًا وأبوابها التي فتحتها عليَّ نهِمًا بلا انتهاء وأنا بعد في المدرسة الثانوية، لم أفكِّر في زميلات الدراسة لأنني لم أكن واثقًا أن أيهنَّ يمكن أن تجازف بعذريتها، ولم أكن لأعد أيهنَّ بالزواج في تلك السن الصغيرة، وهداني تفكيري حينها إلى أنني لن أتمكَّن من الممارسة الكاملة سوى مع امرأة متزوجة، أو على الأقل سبق لها الزواج، ولا أدري هل هي مجرد مصادفة أم أن كلينا قد قرر أن يختار الآخر ليودع سره لديه!

كانت مُدرِّسة في مدرسة البنات المجاورة لمدرستي، وملامحها تنبئ أنها في أواخر العشرينيات، كنت أراها وحدها أحيانًا، وأحيانًا أخرى في صحبة فتاة صغيرة عرفت فيما بعد أنها ابنتها من مطلَّقها، وأن الفتاة تحيا مع أبيها، وتزورها خمسة أيام فقط كل شهر، وهي تحيا وحيدة في شقة صغيرة استأجرتها بعد الطلاق في مدينة بعيدة لتستريح من نظرات وتندُّرات الأهل والجيران بشأن طلاقها بعد ثلاث سنوات فقط من الزواج، وأنها وحيدة تمامًا منذ سنوات ثلاث أخرى!

افتعلتُ موقفًا لأستوقفها متحدثًا معها بعد أن عرفت عنها معظم تلك المعلومات وشعرت أنني أُثار تمامًا كلما رأيتها ذاهبة أو عائدة من المدرسة.

فقد كانت تدرِّس اللغة الفرنسية للبنات، وأنا أكره تلك المادة التي فُرِضَت علينا في المدرسة الثانوية لعدم وجود لغات أخرى، فعرَّفتها بنفسي وقلت لها إنني أرغب في درس خصوصي، وأنني مستعد أن أذهب إليها في بيتها لئلا أرهقها بالمجيء إلى منزل أبي، ولم يكن عَرْضي بريئًا تمامًا، وكنت أشكُّ أنها قد ترفض عرضي، ولكنها قد وافقت دون حتى أن تسألني كم سأدفع لها، وهي تعاين جسدي الذي صار رجوليًّا تمامًا وأنا بعد في السادسة عشرة رغم بعض القِصَر البادي عليَّ.

فوجئت في الحصة الأولى أنها تفتح لي باب شقتها وهي ترتدي زيًّا مثيرًا، (جيب) أزرق كولوش من القطيفة بالكاد يدرك ركبتيها وبلوزة قطنية بنصف كم، بيضاء منقوشة بزهرات حمراء، وبلا غطاء رأس، تاركةً شعرها القصير الناعم حرًّا يغطِّي رقبتها بالكاد، وقد صبغت بعض خصلاته بلون الذهب ليبدو متموِّجًا بين الأسود والذهبي كشمس تشرق على حقل باذنجان، وفي عينيها دعوة صريحة، أو بالأحرى قبول لدعوتي المتخفِّية خلف الدروس الخصوصية، قصَّرَت عليَّ الطريق كثيرًا وسهَّلت مهمتي باستقبالها المرحب، وحين رأيتها دانيةً رحت أقطف ثمارها دون أدنى تردُّد.

اختلفت تلك المرة عن سابقتها في أنني كنتُ بطلها، وكنت من اخترت رفيقتي واشتهيتها، ورتبتُ للقائها من بنات أفكاري، واخترت تفاصيل الحدث حريصًا على أن تستمرَّ لقاءاتنا، وقد دامت علاقتنا ثلاث سنوات حتى أنهيت أعوامي الثلاثة بالمرحلة الثانوية؛ فكان الفراق بيني وبينها هو في نفس الوقت فراقًا بيني وبين التعليم المدني!

صار كلُّ ما يشغلني حتى أثناء تعليمي العسكري أن أضاجع النساء، كنت أختار كلَّ أنثى جميلة تقع عليها عيناي، وكنت أعقد معها اتفاقًا هو ما جعل كثيراتٍ منهنَّ يبحثن عنِّي مرة أخرى، كنت أقول لكل واحدة منهنَّ: ”أحبيني حتى لو كان هذا لقاءنا الوحيد، أحبيني بكل ما في قلبك من مشاعر ودعينا نمارس الحب كعاشقين“، كلٌّ منهن كانت تستهويها التجربة وتعشق الحنان الذي كنت أتقنه دون افتعال، كانت لحظاتي الحلوة كثيرة وممتدة، لكنني حين قرَّرت الزواج ارتكبت خطأً فادحًا، وهو أنني تركت لأمي اختيار العروس التي كان وجودها في حياتي وبالاً عليَّ وعليها معًا.

فقد كانت أقل من العادية، متوسطة الجمال، ريفية، ورغم حصولها على مؤهل عالٍ فلم تتأثر طبيعتها الانطوائية ولم تغيِّر الجامعة من طباعها الجافة، وقلت في نفسي إن هذا النموذج هو الأنسب لي، وبعد أن تشاورنا نصحتني بأنها كذلك، ولم أشكَّ ولن، أن صلة القرابة بينك وبينها ستجعلك تضلِّلني، فتزوجتها غير عابئ، وليتني ما فعلت!!

***

انقطعت رسائلنا يا حسن، فانقطع الإلهام الذي ربط زيارته بحروفه لي لفترة آمل ألا تطول! وانطفأ السيل فلا كلمات، بل دمعات، هي كل ما تبقَّى!

كان صديقي وكنت أحبِّذ تلك الصداقة البريئة، ولكنه اختفى بلا مقدمات، وبلا تردُّد عاد، لكنه عاد فجًّا في تعامله، وحين شكوت ذلك اعتذر مبرِّرًا جفاءه بالحيرة التي تمنعه من الحرية في التعامل معي، فأنا ألجِّمه برفض أي لفظ خارج، وبرفض إفراجه عن مشاعره التي يدَّعي أنها الحقيقة التي بداخله، ثم يختفي ويعود كما لو أنه ملهوف، ثم يكرِّر اختفاءه بنفس الكيفية!

شيء ما سقط من حقيبة يدي فشعرت أنها صارت أخف، شخص ما سقط من قلبي، ربما، فصرتُ أكثر هدوءًا، سنوات سقطت من عمري، فصرت أكثر شبابًا، وأكثر خفة! سواء كان ذلك الشخص زوجي أو صالح، أو حتى أنت!

لم تزدني محاولات ثلاثتكم إلا صلابة وجمودًا، صرتُ كلوحٍ من الزجاج، قد يتهشَّم لكنه لا يتألم..

فأوَّلكم، وهو زوجي للأسف، حفر بين أضلعي نفقًا عبَّأه بكل الوجع الممكن في هذا العالم، وانتحى ركنًا في أقاصي البلدة العتيقة، والثاني (صالح) الذي حاول مخاطبة الأنثى القابعة بداخلي ولمَّا أصابه اليأس ولَّى باحثًا عن أخرى يعتليها.

وأما أنت فقد كنت فدائيًّا فرحتَ تحاول احتواء الوجع واستعادة الأنثى بداخلي فما كان مني سوى الهروب الممتد، لم تيأس ولكنني مع هروبي ضعفتُ، وكلما حدثتَني ذوَّبت بين أضلعي صخرة، وتركت بصدري لهفة، حتى باغتَّني بسهم رشيق استقرَّ بشغاف قلبي، فأدمنت

اهتمامك، وتلك الثقة التي يتضمَّنها صوتك؛ أدمنت مثابرتك، شفافيتك غير المعهودة باعترافك، رحت أُصدِّر لك التبلُّد، وأستحيل في فراشي مزيجًا من الضعف واللهفة، رحت أختبئ من نفسي الزجاجية وألد متعتي بضم فخذيَّ واحتكاكهما دون لمس، وأمامي آخر متخيَّل بصدر عريض تسكنه غابة من الشعر، وأنا أراني أرتشف رحيقًا موزَّعًا تحت أذنيه، في عروق رقبته المتخفِّية تحت تلك الكتل اللحمية، فوق نتوءين نيَّئين بالصدر بما حولهما من شحومٍ متينة وعضلات مفتولة، وكأنني أنهل من ذلك اللحم العميق المتكلِّس، وهو بدوره يضمُّ وجهي بين راحتيه ممطرًا إياه بقبلات قصيرة ناعمة، تطول كلما اقتربَتْ من شفاهي، فأتأوَّه من فرط اللذة.

مراتٍ ست أحيا مع طيفه البعيد، وأتوهَّج ثم أنطفئ ولا ارتواء، ليس سوى مزيدٍ من الرغبة والاحتياج، ليس سوى أنَّات يطلقها قلبي المتلِّهف إلى الحضن!

***

آه يا حسن لو كنت ضابط جيش، فارق كبير بين الجيش يا صديقي وكل ما عداه، تعلم كم كنت أود لو أنني استطعت أن أصبح طبيبًا شرعيًّا، لكن إرادة أبي كانت أقوى مني ومن رغبتي وطموحي، لو كنت قد فكرت حينها لاستطعت إقناعه بأن يسمح لي بالالتحاق بالكلية الحربية بدلًا من كلية الشرطة، ولم يكن ليعترض، فالجيش فخرٌ لكل منتمٍ إليه، ووسام على صدر كل مصري، ولكنني لم أدرك تلك الحقيقة التي خفيت عن عينيَّ لسنوات وسنوات وسنوات!

نعم لكان أشرف لي ولأبي أن أعود جثة هامدة في صندوق خشبي بعد هجوم إرهابي على أحد الكمائن المتوغِّلة على حدود مصر الشمالية أو الغربية، لو أنني كنت أحيا عسكريًّا في الصحراء تلك الحياة الرجولية تمامًا، دون فائض وقت للتفكير في النساء ولا في أيٍّ من المتع الدنيوية الأخرى، آكل ما يتوافر بين يديَّ، وأستحمُّ مرة وحيدة أسبوعيًّا، وأبدل ورديَّتي مع زميلي الذي يشاركني الرتبة والكتيبة، وأعود إلى أمي ورفاقي خمسة أيام شهريًّا هي كل ما يُسمَح لي به، وفي بعض الظروف الاستثنائية تُلغى إجازتي فأظل لشهرين أو يزيد كمطاريد الجبل، ليس لهم هم سوى الاحتفاظ بقربة ماء بارد أطول وقت ممكن، مع تأمين مخزون الخبز والجبن كحد أدنى للقوت في الأيام الصعبة، وتلك التي يتأخَّر فيها وصول التموين الشهري، أظنُّ أن تلك الحياة كانت لتمنحني البال الرائق الذي عزَّ إدراكه في ظروفي الحالية، فالتعاسة في الزواج هي أسوأ ابتلاء يمكن أن يواجه الإنسان؛ المرض يُشفى والجرح يبرأ، ولكن تعاسة الزواج لا تنتهي لا سيما لو كان بيننا أبناء تنتفي معهم الحلول السهلة والاحتمالات البسيطة.

...

كان من السهل حينها أن أعيد النظر في علاقة مشروعة مع أخرى ليس مستبعدًا أن تكون هديَّة، نعم تكبرني بعشر سنوات أو أكثر، لكنها تشبع عقلي وقلبي معًا، تلك المرأة قادرة على التحليق بي إلى سقف الدنيا وتفتح لي باب الطموح على مصراعيه، تدعم ثقتي في ما أكتب، وتراني مبدعًا حقيقيًّا في زمن عزَّ فيه المبدعون، وتتهمني بالتقصير في حق نفسي، وتشجِّعني على الاستقالة من عملي، لا تعرف يا صديقي أن الأمر أصعب بكثير من أن يكون اختيارًا حرًّا، فضلًا عن أن يكون مطروحًا من الأساس، لكنها تهتم بي وتعاملني بآدمية، وهذا ما أبحث عنه لدى زوجتي فلا أجده، ولكنني مع هديَّة أشعر أنني أحيا وما زال قلبي قادرًا على العطاء.

***

دعني أحكِ لك التفاصيل التي أوجعتني يا حسن بقدر ما أفرجت عن كبتي ومعاناتي، فقد التقيته بعد محاولات مستميتة من جانبي للتسويف والتأجيل، فاقترب منّي كقط يتمسَّح في فخذ صاحبته يعرض أن يمسِّج جسدي، فألقاني على بطني برفق فاردًا ظهري بعد أن نزع عني العباءة القطيفة (القطعة الوحيدة التي كنت أرتديها)، محاولًا أن يؤدي دور الممسِّج الحقيقي فكانت أصابعه فظَّة فظاظةً لم أحتملها، وحين لاحظ امتعاضي راح يخفِّف من ضغط يديه محوّلاً الأمر إلى مداعبات لجسدي الذي تحوَّل إلى قطاع من الخشب الحاد، لم يفُتْهُ أن يلحظ ذلك فحاول أن يلثم رقبتي بشفتيه، رحت أتعجَّب بداخلي من تلك الغشاوة التي غلَّفت قلبي ومنعت عن كل حواسي إدراك أي نوع من المتعة بلمساته، استدرت على ظهري فصارت مفاتني أمام وجهه فراح يداعبها على أمل أن يلحظ مني تجاوبًا فلم أزد إلا تخشُّبًا، وأنا بداخلي أطالب جسدي أن يتفاعل ويروي ظمأه وهو متصلِّب لا يزداد إلا جفافًا وجفاءً، ويبحث عن لمسات متخيَّلة من آخر متوهَّمًا، يؤدي دور الفارس!

راح يواصل مداعبتي، فإذا بي أزداد صدودًا ورفضًا، فيتعزَّى بالصبر ويعدني أنه لن يقتحمني بسرعة لكنه يفعل بشيء من القسوة، محاولًا استثارتي، وأنا أحاول أن أستقبل ذلك الشعور فتأبى أعصابي أن تنفعل أو تظهر أي رد فعل، وإن بدأ الشدُّ العصبي يقلُّ تدريجيًّا ولكن بلا متعة، وهو مدرك لما يحدث، فعرض عليَّ أن نتبادل الأوضاع فوافقت، وسحبت نفسي من تحته كأنني أزيح كتلة من الوجع عن جسدي المثقل بالإرهاق!

...

اعتليته في محاولة لأستحثَّ بداخلي أي مشاعر رغبة ممكنة، وحين بدأ جسدي في التجاوب لاحظت أنه يوشك أن يفقد قدرته على الاستمرار، وشعرتُ باهتزازة قوية تعلن أنه قد بلغ ذروته في لحظات، فانسحب لفوره من الفراش فجذبته برفق ليشعر أنني لا أزال بحاجة إليه، فاحتضنني بفتور لدقائق قليلة ثم قام مغادرًا الغرفة!

سمعتُ صوت زخات الماء فاطمأننت إلى أن أمامه ما لا يقل عن سبع دقائق وربما عشرًا أظنُّها كافية تمامًا لأتخيَّل حالة متوَهَّمة تصل بي إلى الذروة وأنا أضم ذلك الطيف إلى صدري ضمَّة عنيفة، هدأتُ بعدها تمامًا كجثة هامدة!

***

الزواج يا حسن ليس رفاهية، ولا أحبِّذ أن يتزوَّج رجل وامرأة ليس بينهما ارتباط مسبق واختبارات حقيقية، فلا بد أن يختبر كلٌّ منهما الآخر والظروف ونفسه كذلك، هل أنت شخص تحتمل أنفاس آخر يشاركك نفس الوسادة لساعات وكلاكما يفقد التحكُّم في ذاته وتقلُّباته وحركاته وسكناته!

سأظل ألعن الفكرة رغم اعترافي بعشقي لأبنائي، مع زوجة لا تقدِّر قيمة الأبناء ولا منظومة الزواج بأكملها، لا أستطيع تمثيل دور الزوج العاشق وأنا أرفضها بداخلي يا صديقي، ويومًا فيومًا يزداد رفضي إياها تمامًا، فكثيرةٌ هي الاختلافات بيننا، فهي لا تقدِّر أنني ذو طبيعة خاصة، وأن حياتي بها من الاهتمامات أكثر كثيرًا من مشاجراتها التافهة، وتفتيش هاتفي بشكل يومي وكأنها هي ضابط البيت، وكأنها تصر على خلع النسر والنجمة المجاورة له من كتف بذلتي الرسمية لتضعهما فوق كتفيها طوال مدة إقامتي في المنزل حتى وأنا نائم، فأنام بعين مغلقة والأخرى مفتوحة لأنني لا آمن على نفسي، حتى أنني كثيرًا ما أقع فريسة العصبية والمزاج السوداوي بسبب قلة النوم أو توتره.

اليقين يا صاحبي، ليس مجرد يقينك بنفسك، نحن لا نتنافس في حلبة مصارعة، بل نقبل بطرف منقوص ليكمل كلٌّ منا بنقصه ذا- الآخر الناقص كذلك!

هل تدري كم تحرِّضني طريقتها تلك على اقتراف كل ما من شأنه أن يثير انفعالها؟ صرت أكرهها يا حسن، لو خُيِّرت سأبتعد عنها فورًا، لكن ابني وابنتي يكبِّلان يديَّ وقدميَّ، فقد ترتكب أي فعل غير مسؤول بغرض الانتقام مني فيهما، نعم إلى هذا الحد لا آمنها عليهما، وكثيرًا ما يتشبَّث بي الطفلان لئلا أغادر المنزل وأتركها تنفرد بهما، إلى هذا الحد

صارت كائنًا غير مأمون الجانب، بل إنها مريضة عقليًّا، وفي حاجة إلى مستشفى تظلُّ فيه سنوات ربما تتعافى، ونرتاح أنا وابني وابنتي منها.

***

الزواج يا حسن هو أهم طموح للإنسان، لكنه لو لم يحسن الاختيار لكبَّله الهم طوال العمر، أخطأت، نعم، أخطأت حين تخلَّيت عن الأصول ورضيت بهرمٍ مقلوب، بحجَّة أنني امرأة ناضجة ومن حقي أن أختار حياتي، ورضخت لقلبي وسرت وراءه كالمغيَّبة، لم أبحث عن ضمانات اجتماعية ولا طلبت حقوقًا تكفل لي أن أحيا حياة طبيعية هادئة ومستقرة ككل الأزواج في مجتمعنا الشرقي بامتياز، كيف انخدعت بشعارات براقة غير حقيقية واخترت رجلًا أكل منه الاكتئاب وشرب حتى تركه حطامًا، وظننت أنني أستطيع أن أعيد إليه الحياة!

أعترف الآن أنني أخطأت، أخطأت حين لم أحفظ لنفسي حقَّها في الكفالة والمسؤولية، وأخطأت حين تخلَّيت عن المهر والشبكة والقوامة التي تُلزِم الرجل بالكفالة والإنفاق، وأخطأت حين قرَّرت أن أحتمل معه نصيبه من الزواج!!

أضبطني متلبِّسةً بك، وليس بالآخر الذي أحدِّثك عنه، أو أهرب منه فيما بيني وبيني، وكأنني أريدك أنت، أتحرَّى لمساتك، اقترابك! هل تصلك رسائلي أم تصمُّ أذنيك عنها لئلا تتورَّط معي في علاقة مشبوهة هناك في أخيلتنا، حيث مخابئنا السرية! سأزيح عن كاهليك عبئي، سأعترف أنني لا أرغب فيك بالأخص، أنا أبحث فقط عن آخر مهتم، نعم تلك هي الحقيقة العارية، آخر ينشغل بي وحدي، يريدني وحدي، يدلِّلني وحدي، وأنت!! من أنت؟! أنت وجه آخر لنفس العملة التي يرتسم صالح على وجهها الأول، ولو أن مؤيَّد عاد إلى اهتمامه بي لعدت أنا كذلك إلى شغفي ونعومتي معه، وما كل تلك الثورة سوى اعتراض على الإهمال والاستهتار اللذين يصدِّرهما لي!

***

نعم يا هذا.. الزواج هو الدنيا وما فيها، أو الجحيم وما تعنيه، كانت زوجتي الراحلة ملاكًا يسير على الأرض، وكان زواجي من هديَّة في تلك الظروف القاسية خطأ لم تسامحني ولم أسامح نفسي عليه، فهل سأسمح لنفسي أن أعترف أمامك أنني أذللتها؟ أشك!

فقد كنت أبحث عن خلاصي من جحيم النحس الذي قلب حياتي رأسًا على عقب، ظللت أتساءل أي ذنب جنيته؟ هل هي دعوة زوجة أخي الأولى التي كنتُ سببًا في طلاقها؟ قد تكون، وقد تكون الأسباب خفية ليس لي أن أدركها، رغم محاولاتي المستميتة للوصول، لا يمكنني التخمين، لكن ما أستطيع التسليم به أن شيئًا غامضًا يتدخَّل في كل تفاصيل حياتي، لقد اخترت الزواج من هديَّة بكامل إرادتي، لكنني لم أمارس إرادتي قيراطًا واحدًا بعد إعلان زواجنا، وأسلِّم بلا دليل أن قوًى خفية تتدخَّل في كل شيء في حياتي، وعلى الأخص عملي وزواجي بهديَّة، ورغم وفاة زوجتي الأولى، فلم أستطع مصارحة بناتي وأختيَّ بزواجي، فقد أكون متخوِّفًا من أوهام لا تسكن سوى برأسي أنهن سيشعرن بتخلٍّ من جانبي نحوهن لو أن خبر زواجي تسرَّب إليهن، وقد أكون أنا نفسي غير مقتنع بنسبة 100 % أنني زوج ورب أسرة أخرى، ولي امرأة تنتظرني في مدينة بعيدة.

***

دمٌ كذبٌ هو ما يحاول أن يلقيه في طريقي يا حسن، حين يتهمني بالخيانة لأنه لا يستطيع أن يحتويني ولا يجتهد لإرضائي وإشباعي، فلأي سببٍ وافقت أن أتزوَّجه؟ سببان لا ثالث لهما: أن يحتويني، وأن يشبعني، وفقط، لا طمعت أن يكفلني ولا أن يحمل همومي ولا حتى فكرت أن أطلب منه مسكنًا للزوجية، ورضيت أن يشاركني بيتي، ألهذا الحد؟ نعم هنت على نفسي فسهل هواني عليه!

هذا الفراش لا أحد، لا حضن، لا رفيق، لا أنفاس يقطع تراتبها عواء الليل في أذنيَّ، ومحض رغبة جارفة تتصاعد بداخلي لاحتضان آخر لا أسميه، كل ما بداخلي يبحث عن طعم هذا الحضن وملمسه، عن احتواء كلينا للآخر، عن تلك القبلات بأعين مفتوحة تتفرَّس كل تفاصيل الشهوة الطاغية بين جسدينا، هو يعلن رغبته القصوى، وأنا أزعم أني أتماسك ما زلت، وإن سقط جداري سيرأف بي، ويكون هادئًا وحكيمًا، ويرحم ضعفي واستسلامي ذا نحوه، فالنشوة لحظة وصول، والاحترام أبدٌ ممتد، والآخر مجهولٌ، ولهذا أنتظره، فلو كان معلومًا لما سمحت لنفسي أبدًا بانتظاره، لا مؤيَّد ولا صالح ولا أنت يا حسن، ولا أي رجل من أولئك الذين أوقفهم الزمن في محطاتي العابرة أو المستقرة التي لم يُكتب لها البقاء، فكل الرجال في أعيني محض سراب أنا من أتخيَّله وأتوهَّم اقترابي منه، حتى أوشك أن أهمَّ باحتضانه فأفيق على الحقيقة المرة ويتبخَّر ظله في ثوان، وإذا بي أحتضن الفراغ!

كنت على استعداد أن أنتظر وأصبر وأحتمل غيابه في الحضور وتقشُّفه المادي واكتئابه المهيمن حتى نصل معًا إلى بر أمان، لكنه آثر أن يفصلني تدريجيًّا عن أحداثه وعن حياته بحلوِها ومرِّها، حتى أنه بعد فترة صار يصدِّر لي السواد فقط، فأوصلني إلى حالة من الرفض

ثم اللامبالاة والرغبة في التخلُّص من بقاياه في داخلي وفي حياتي المعيشة على السواء، وبغباء منقطع النظير قد انسحب إلى ركنٍ يجعل مهمتي أسهل في البعد عنه ويهيِّئني للتعافي تدريجيًّا.

هل جربت أن تستيقظ فتجد أن عينيك اللتين أصابهما الجفاف لفترة ليست قصيرة وقد أخرجتا كل الدمع المحبوس إثر أزمة شديدة وقعت فيها وبحثت عن طيف من الدمعات فلم تجد!

إنه لطف الله يا صديقي يحدوك في كل المواقف، ليس بالضرورة أن ما تظنُّه خيرًا يكون خيرًا، ولا ما تظنُّه شرًّا يكون كذلك حقًّا، المهم أن ترضى بما قد كتبه الله لك.

ثمار المانجو التي كنا نتشارك الاحتفاء بها واقتسامها معًا تكاد تسألني اليوم عنه، ولماذا صرت ألتقيها وحيدة، دون صخب الضحكات واختطاف كلٍّ منا لحمها الشهي من الآخر، وكأنها تبحث عن هذا الآخر الذي كان يشاركني البهجة ويراقصها فوق ملاعق الآيس كريم وكأنها تتمايل على موسيقى الضحكات الموصولة. فالطعام هو أيضًا حالة تكشف أمزجتنا مهما تفنَّنَّا في مُداراتها حتى عن أنفسنا. فلا طقوس زفاف تكتمل دون صخب، ولا فرحة تتم دون رقص وصحبة ووهج، فهل تشرب الخيل إلا بالصفير! وهل يلذُّ الطعام إلا بالمشاركة؟ وما إعداد أشهى وأبهى صنوفه إلا كتعبير داخلي صادق عن الحب، وحين أفعله فإن كل ما أقصده أن أعبِّر ليس فقط بكلمات الحب عن رغبتي في احتضان أحبَّتي بأن أعالج جوعهم وأنشر الفرحة بينهم، وقمة سعادتي وانتشائي حين أرفع الأطباق فارغة بعد استمتاعهم بما فيها من طعام، فكلٌّ منا يتقن التعبير عن الحب بطريقته، وليس الكلام هو الوسيلة الوحيدة، بل إنه الوسيلة الأخيرة التي يمكنها التعبير والوصول إلى قلب المحبوب!

يمر الليل بطيئًا كئيبًا، وأنا مفردة كتينة حمقاء منعها شوكها المتناثر على سطح قشرتها من كل اتجاه أن يقربها أحد، سوى بعد أن تتخلّى عن كل ملابسها وتقف عارية فربما يأتي الآكلون، دون تودُّد أحيانًا لمجرد فوائدها لا لجمال طعمها ولا قوامها غير المتاح.

هل جربت أن يتحول صدرك إلى عجين غير مختمر؟ فلا هو يرتفع فتخف كتلته، ولا هو قادر على الاستحالة إلى صورته الأولى، وكل ما يحدث أن رائحته تتغيَّر مستحيلًا إلى ما يشبه الحامض الذي لم يعد صالحًا للأكل!

في منامي رأيت كلبًا ضخمًا، بل هائل الضخامة، ربما أقرب إلى ثور، أبيض يكسوه شعر غزير كشعر خروف كسر العام أو أكثر وهو يحاول أن يتشمَّمني، ولكنني ارتعبت وحاولت البعد عنه لئلا يلمسني، ويبدو للمتأمِّل أنه يتودَّد إليَّ فقط ولا يريد أن يؤذيني، لكنني لم أحتمل فكرة أن يلمس حتى طرف ثيابي ولا أصابع يدي، فاستحال الحلم كابوسًا ورحتُ أصرخ حتى انتبهتُ من نومي...

ورغم أن نومتي كانت على الجانب الأيمن وأنني عبرت في المنام عراقيل كثيرة جدًّا وطرقًا منحدرة وغير معبَّدة وبها منحنيات صاعدة كمطلع جسر ومنزله، وكأن تعديلات كثيرة تتمُّ في الطريق، وظهر رجل أعرفه في الواقع لكن ليس بيني وبينه أي تعامل سوى أنه كان زميلي في العمل، ثم انتقل إلى مكان قريب، مسؤولًا عن البصمة والحضور والغياب، واسمه ربيع، أمسك بيد ابنتي الصغرى معاونًا إياها على صعود المنحنى وهبوطه معي، ثم اختفى فجأةً في نفس لحظة ظهور الكلب الأبيض الضخم جدًّا.

ظللت بعد انتباهي من نومي أحمد الله لأنني استيقظت دون أن يلمسني هذا الكلب، وأنني نجوت منه وأشحت إليه أن يبتعد، ما يعني

أنني أرفض أي تودُّد أو تحرُّش أو محاولة اقتراب، وتلك علامة على النجاة، فلله الحمد أولًا وأخيرًا.

ثم لليلة الثانية على التوالي يزورني في منامي كلب، وبمواصفات قريبة جدًّا من مواصفات الكلب الفائت، فهل تلك إشارة وإن لم أكن أدرك بعد ما تعنيه؟ وهل سأنجح في فكِّ شفرتها يومًا ما؟

هذا الحلم الجديد به أحداث كثيرة جدًّا ومشاهد أظنُّها علامات لأحداث مقبلة، فضمن مشاهده السيد الرئيس، جالسًا إلى جواري وكأن عملًا يجمعنا، مال على أذني طالبًا مني بعض الأمور الخاصة بالعمل، فنهضت من جلستي إلى جانبه لأحضر له ما طلب ولكن دون حماس للإجابة، ودخلت إلى أحد المكاتب أفتِّش عن تلك الفايلات البلاستيكية التي طلب عددًا منها فارغًا، فرأيت بعضها لكن إحدى الزميلات تحتفظ بقصة حياتها فيه، فاحترمت خصوصيتها ولم أنزع الفايلات عن أوراقها، بل أعدتها إلى مكانها وخرجت وأنا أنتوي أن أخبره أنني لم أجد، خرجت إلى شرفة تعلو المكان الذي كنا نجلس فيه ونظرت إلى حيث كنا فوجدت المكان شاغرًا، فأشرت إلى أحد أفراد الأمن سائلة عنه فأشار أنه غادر، فشعرت بارتياح شديد لأنني لم أعد مضطرة أن أبحث عن الفايلات مجددًا!

لكن طلبه الغريب أن أحضر فايلات وأقوم بتدبيسها فارغة وسؤالي ماذا سأضع بداخلها وتأكيده أنني سأدبسها كما هي فارغة لم يفارق عقلي حتى بعد أن استيقظت!

والمشهد الآخر أو الأول في الترتيب كان قصرًا أسكنه فخمًا وواسعًا مدَّ بصري، وزوجي يأتيني بكلب ضخم يشبه كلب الليلة الفائتة، ولكن ظهره مغطى أو ربما مصبوغًا بلون نبيتي من درجات الباذنجان وليس من درجات الأحمر، وكأنه يعرض أن يحيا هذا الكلب معنا في البيت

ولكنني فتحت الباب وأصررت على خروج الكلب، فخرج الكلب الهادئ طائعًا!

بداخلي آلام نفسية تحاول أن تظهر بأي وسيلة ولو أنها تتحوَّل إلى أوجاع عضوية، فلا دمع يخفِّف وطأتها، ولا حضن يحتويني فيساعدني على التخلُّص منها، الحضن عزيز! ولا أمل في التعافي القريب، وإن كنت أحاول أن أتشبَّث بالدعاء وبالتقرُّب إلى الله حتى يُمنَّ عليَّ بالمدد، أحتاج أن يغسلني دمعي، ويدركني اللطف، وأعلم أن الله رحيم، وأن قلبي بين إصبعيه، وأبتهل إليه أن يصرف مشاعري عن البشر الفانين، والقادرين على الإيلام وتوريث الوجع، وإن لم أزهد بعد في الدنيا وملذَّاتها، فلا يزال جسدي فقيرًا إلى الحضن، إلى إشباع الاحتياج، إلى التأوُّه من فرط اللذة، إلى لحظة وصول مشتركة وارتعاشة أولها لديه وآخرها بداخلي، وآهة مزدوجة نطلقها معًا كعلامة على انتشاء لطالما انتظرناه، وحضنٍ يجمعنا حتى يغزونا النوم، وإحدى ذراعيه وسادتي والأخرى غطائي.

***

آه يا أيها المدعو حسن! فتَّشتُ عنكَ في كل ما يخصُّها، راقبتُها، تتبَّعتُ خطواتها وحركاتها وسكناتها، فلم أجد لك وجودًا سوى على تلك الأوراق، من أنت بالله قل لي؟ هل أنت رجلٌ من لحم ودم؟ أم أنك لا تعدو أن تكون وهمًا في خيالها! سأجنُّ لو لم أجد إجابات لما يعتصر قلبي من تساؤلات ومناقشات، فلو لم أجد خيط دليل سأظلُّ في حيرتي القاتلة، أي ذُلٍّ هذا، أي خبط عشواء أراني بين مخالبه! وماذا يهدِّئ ذلك الفوران برأسي أو يرشدني إلى طريق أسير فيه كي أستريح! إياك أن تظن أن بإمكانك البقاء في أي شيء يخصها ولا حتى أوراقها، أو ملفات الوورد الخاصة بها على أجهزتها الشخصية! إياك أن تظن أنني سأترك لك فرصة لتنفرد بها دوني، أو أنني سأهدأ قبل أن من أنت وماذا تفعل هنا، وما علاقتك بزوجتي! وكيف لم تتحدث عنك أبدًا من قبل، وأنا أراها تحدثك كأعز الأصدقاء.. من تكون بحق السماء!

***

لم أكن أقصد يا حسن أن أحظرها بلا رجعة، والمفترض أنها تعلم ذلك جيدًا، فلماذا حين جئت إليها مهرولًا وقمت بفكِّ الحظر صدمني ما رأيت! لقد حظَرتني هي أيضًا يا صديقي، لماذا؟ لست أدري! ألهذا الحد ترفضني؟ من وشَّى بي عندها؟ ما قالته لي في المحادثة الأخيرة ينبئ أن هناك من حدَّثها عني، حين قلت لها ردًّا على طلبها أن تعرف وجهي الآخر في العمل: لو أنك رأيت ذلك الوجه مني لكرهتِني فردَّت ردًّا صادمًا أذهلني، بل أفقدني القدرة على النطق أمامها أربعة أيام على أثر الرد!

قالت لي: أعرفه جيدًا، رأيته وسمعته، وكرهتك حقًّا فيه!

من أين لها ذلك يا رفيق الدرب وعشرة العمر! اعترف يا صديقي لربَّما استرحت، أو حتى ربما قضى الإحباط على ما تبقَّى من إنسانيتي المزعومة، وحرَّمها عليَّ إلى الأبد!

***

سأظلُّ أحاورك يا حسن.. هناك، في عقلي فقط، ربما لو وقعت تلك الرسائل في يد زوجي أو حتى في يد صالح الذي ألقاك في طريقي ليسهل عليه تتبُّعي، لما صدَّق أيهما أننا أبدًا لم نلتقِ، بل وإننا أبدًا لم يرَ أحدنا الآخر لا واقعًا ولا أثيرًا ولا عبر الإنترنت، بل إن أكثر رسائلي تلك لم تصل إليك ولم تقرأها بالكلية!

ربما لن يعلم أحدهما أبدًا أن كل ما بيننا من اتصال أو وصل قد انقطع، وأن ما كان ليبدأ بيننا قد انتهى قبل حتى أن يشرع في البدء، إنهما لا يعقلان أن (أنت) الواقع محض رجل، لا تختلف عن أيٍّ منهما، وأن ثلاثتكم لا تختلفون عمن سواكم، فكل رجل على تلك الأرض يبحث عمن يكمل نقصه، ولا يكمل نقصه اللحظي في ظنه سوى امرأة، يتغذَّى على حضورها حتى يكتمل للحظات ثم يلقي بها إلى أقرب مكبِّ نفايات يمرُّ به مصادفة!

الدائرة تضيق، وجميعكم يرغب أن يأخذ فقط، لا آخر، في محيط تعاملاتي على الأقل، وحتى الآن، مستعدٌّ للعطاء، أو حتى للمشاركة، فلسفة الأخذ والرد لم تعد مكفولة، لم يبقَ سوى أخذ فقط، فكلما بحثت في قائمة الأصدقاء المقربين في واقعي متوسِّمة في أيهم أن يكون صديقًا حقيقيًّا استحال في لحظات إلى ذئب ماكر، أو ثعبان متلوِّن، ملقيًا بتساؤلاته الوقحة في وجهي، فأحدهم يرى أن الصداقة قريبًا أو بعيدًا من الحب لا بد أن يتخلَّلها نوعٌ من الممارسة، قلَّ أو كثر، نقص أو كمل، مرة أو مرات!

وآخر يرى أن الصديق من حقه على صديقته أن تستوعبه وتحتويه وتشبع احتياجه المعنوي أو المادي أو حتى الجنسي، وثالث يرى ألا مانع من استقبال المزاح والنكات الخارجة بألفاظ خادشة للحياء!

لستُ بخير يا حسن، وإليك الدليل، قد تكون مرَّات معدودة التي أحفظ فيها بقايا الأطعمة في الفريزر وأقرِّر استخدامها بعد بضعة أيام بدلًا من إعطائها لمن يستحق، يكفي أن أقول لك إنني تلك الأيام أحيا على بقايا تلك الأطعمة لتعلم كم أعاني، فمهما كان ما أمرُّ به لم يكن يمنعني يومًا عن صنع طعام طازج ودون شعور بذلك الثقل، جسدي كمن يحمل جوالين من الرمل ومطلوب منه أن يسير الطريق كلَّه هرولة، مسيرة الرحلة وليس مجرد العبور يا صديق، المرارات ثقيلة، والهدم صعب، لا أنكر أبدًا، وأعراض الانسحاب أثقل من دابَّة منتفخة لم يعرف الدود بعد طريقه إليها، أشتاق إلى عينيه، إلى صوته، إلى حضنه الذي كان في البدء، إلى خفَّته حين كان ينطلق ناسيًا أنه في أزمة، إلى تلذُّذه النهِم بجسدي حين كان يجرِّدني بعينيه من كل قطعة ملابس تسترني عنه، كنا نعشق ممارسة الحب بأعين مفتوحة تحت إضاءة قوية، كي يتمكَّن كلٌّ منا من تشهِّي جسد الآخر، وليس هو فقط، بل أنا أيضًا كنت أعشق جسده النحيف، وأداعبه بأصابعي تارةً، وتارةً أخرى بفمي، كنت ألعق رقبته كما كنت أتمنى منه أن يفعل، وأداعب صدره وبطنه وأرتشف سرته مثلما كان خيالي يطمح منه أن يفعل هو كذلك معي، أتحسَّس فخذيه وركبتيه وسمَّانتي ساقيه بنعومة أحلم أن يبادلني إياها، لكنه أبدًا لم يفهم رسائلي، واكتفى باستقبال تدليلي إيَّاه بخدر وتكاسل، دون أن يبادلني هذا الدور الذي كان بالأحرى دوره، وحين بدأت أمورنا في التعقُّد كنت أطالبه بهذا فيتهرَّب متعلِّلًا بسوء المزاج! المزاج الذي لم يعد بخير هكذا باستمرار حتى لحظة الفراق التي حسمتُ موعدها بداخلي!

هو يحاول الآن استعادتي، لكنَّني في قرارة نفسي قد غادرته إلى الأبد، نعم، عليَّ أن أخوض معركتي، بلا تراجع، وبلا فرصة لمحاولات

التفاوض التي يمارسها منذ أيام، كيف أمحو من صدري الألم الذي تعرَّض له، وأثقلني نفسيًّا وعاطفيًّا!

الحياة فرصة، قد تأتي، وقد تعلَق بتيارت الهواء المبتدئة الظهور فتظل تدور حولها بلا انقطاع، لكنها أبدًا لا تصل، في موعدها، إن وصلت بالأساس!

الأشهر تترا، والغياب والفقد هما ما أعهده الآن، وقد أخفق الرجل الوحيد الذي انتظرت منه أن يتعهَّدني بالاهتمام في جعلي آمنة أو سعيدة حتى لو كنت على خطر.

هل جرَّبت يومًا أن تنحشر روحك في قطعة من البراز تسدُّ مؤخِّرتك وتأبى الخروج ولا حتى العودة من حيث كانت فيتصبَّب عرقك وكأنك تحتضر؟! الألم النفسي يسدُّ علينا كل المنافذ يا صديق!

***

تلك المرأة حيَّرتني يا أيها الرجل الدخيل.. أخرجتني من صمتي ومن انعزالي عن العالم بإصرار وتصميم على أن تصبح في حياتي وأصبح في حياتها، صبرت وثابرت حتى أسرتني تارةً بحبها، وتارةً بمعروفها، وثالثةً بدعمها إياي.. هي لا تعرف أنني أحيا بنصف عقل، ونصف قلب، ونصف تركيز!

لا تعي أنني معطَّلٌ عن دوري الذي لطالما مارسته في الحياة، فقد زال عرشي الذي ظللت عشر سنوات متوجًا به، زال غناي وزالت وسامتي وزالت هيمنتي.. فلو أن عليَّ أن أصبر وأحتمل ابتلائي فلماذا تصبر هي أيضًا؟! أبدًا لن ألومها ولن أتهمها بيني وبين نفسي بالتخلي، وإن أظهرت لها ذلك، فكم احتملت معي وكم آلمتها لسنوات!

هديَّة ليست مجرد زوجة مؤقتة في حياتي، وليست كما تزعم شخصية غير محورية في وجودي، بل إنها لا تدرك أنني أستمدُّ منها الأمل والرغبة في الوجود والتحرُّر من زنزانتي التي عشت سنواتٍ وسنوات حبيسًا بين جدرانها.. نفسي! وأية حسرة أيها الـ(حسن)، يا من هبطت كبالون مطاطي على حياة زوجتي ودون علمي.. أنا أحب هدية ولن أتركها إلا إذا كانت هي بالفعل قد قرَّرت إنهاء وجودي في حياتها، فلا شيء في يدي لأجبرها على البقاء معي أو الاستمرار وتلك ظروفي ولا أمل قريب في أي تغيير قد يطرأ عليها.

***

الطريق طويل حقًّا لكنَّ مصر جميلة يا حسن وتستحقُّ أن نقطع أوديتها وسهولها وواحاتها وشواطئها، جميلة في مناخها، طرقها، صحرائها قصيرة الجبال، ودِّها الممتد للجميع، الرحلة إلى شرم الشيخ أهم ما فيها الاحترازات الأمنية الشديدة، والكمائن المتعددة، وحالة الاستنفار المستمرة.

في أحد الكمائن يطلبون من المسافرين النزول من الأتوبيس وفتح حقائبهم لإجراء عملية التفتيش، نزلت وصديقتي التي ترافقني الرحلة وأمسكت كلانا حقيبتها فتحرك الضابط المسؤول خطوات باتجاهنا قائلًا: اتفضلوا اطلعوا أتوبيسكم، مشيرًا إلى العسكري المرافق له حاملين عنا حقائبنا ورافعين إياها إلى شنطة الأتوبيس بتواضع وصدق شديدين، هؤلاء هم الوجه الحقيقي لرجال الأمن، وليس من نسمع عن فظائعهم وسوء معاملتهم وتجاوزاتهم، وفي كمين آخر يصعد رجل الأمن ويطلع على كل بطاقات الهوية للركاب، إنه لا يعلم أن ست السنوات بيني وبين زوجي لم يجمعنا البحر فيها يومًا ولم تحتوِ مياهه أجسادنا في حضن استثنائي، وأن بيننا صدعًا لا يرجى رأبه!

البحر هو الجموح يا صديقي، هو الـ(محتوينا) حين نقرر التخلص من كل همومنا والتخفُّف حتى من خطايانا، نحن نتطهَّر بشكل ما دون أدنى شعور بالحرج أمام الآخرين الذين لا نعرفهم ولا يعرفوننا..

الرضا يا حسن.. الرضا هو النعمة الكبرى التي يمكن أن يُرزَقها الإنسان، وتبدو مظاهره أكثر في الشدائد، لي صديقٌ كنت أظنه أقرب إلى الإلحاد، أو الإيمان الوراثي/السطحي في معظم الأحيان، فهو مسلم لأنه ولد مسلمًا، لكنه لا يصلي، ويصوم صومًا متقطعًا، مبررًا لنفسه أنه لا يحتمل آلام الجوع والعطش، كنسبة كبيرة من

الشباب حتى العقد الخامس من العمر في أيامنا تلك، اختبرته الحياة بأحداث جسام، أهمها أنها حرمته من قرة عينه، أبنائه الذين تركهم راضيًا في ذلك البلد الأجنبي، في كنف أمهم وأهلها، مقنعًا نفسه أنهم سيعلمون قيمة الوطن بعد أن تصقلهم التجارب والأحداث في ذلك البلد الغريب، للأسف هو لم يفكِّر في المؤثرات الكثيرة التي ستتضافر لصنع نوع من التحوُّل المفجع في الانتماءات والقناعات الشخصية لأبناء في عمر الزهور، فأكبرهم حين سافروا كانت في الثانية عشرة وأصغرهم في السادسة أو أقل، أي وطن اختزنته قلوبهم وضمائرهم في تلك الأعمار يا صديق؟

حين نقترب أكثر نرى التفاصيل بشكل أوضح، صديقي الأقرب إلى الإسلام بالوراثة يخضع للتحوُّلات حتى إنه يرى الخلاص الحقيقي في الرضا والتصالح مع الواقع، ظل يحبس مشاعره ويبكي في صمت حتى ابتُلي بمرض قاسٍ!

راح يستجمع قواه الروحية مرددًا (الحمد لله)، باحثًا في أعماقه عن اللطف الذي بدأت حديثي معك عنه، فراح يستجيب لنداءات اليقين فأخذه قلبه إلى المسجد مع أذان الفجر.

ثمَّة دمع غزير يتفجَّر كمفاجأة، هو في الحقيقة ليس مفاجئًا لكنه دمَّر السد الذي سهرتُ ليالي طوالًا في تشييده؛ أيهذا الوجع الكامن في الأعماق رفقًا بي، كفَّ عن محاصرتي واعتصاري، فلن أستسلم ما دامت أنفاسي تتواتر.

كنت بحاجة إلى شاي أخضر بمواصفات معينة، وحين ذهبت لأبحث عن نفس النوع أو نوع شبيه لم أجد سوى شاي أخضر بنكهة الياسمين، ولإقرار الواقع فأنا قد تابعت المزحة عن علاقة الإخوان بالسلطة وربطها بشاي الياسمين، ورحت أشعر أن هذا النوع من الشاي

له آثار ساحرة حقيقية مع تناول أول كوب منه، فقد شعرت أنني صرت أهدأ، وكأن هناك نوعًا من التنقية قد حدث لدمي بالكامل بمجرد أن انتهيت من الكوب الذي لا يزيد عن 300 مم، كما سرى بأطرافي خدر لذيذ وكأنني استيقظت لتوِّي من نوم عميق لوقت كافٍ جدًّا، كنت قد ذهبت إلى السوبرماركت لأشتري بعض احتياجاتي الشهرية من البن ومسحوق الغسيل، والمكرونة الاسباجيتي، والمناشف الورقية، وبعض علب التونة والسردين المغربي، وأشياء أخرى، وبعد أن اخترت كل ما تداعى إلى ذهني وقفت أحاسب الكاشير فاكتشفت أن الحساب أكثر من المال الذي في جيبي، ففكرت أن أستبعد بعض السلع، ثم غرقت في أفكاري لثوانٍ، فسألت الكاشير عن إمكانية الاستعلام عن رصيد اكتساب (واكتساب هو كارت مجاني هديَّة عند أول شراء تحصل معه على بعض النقاط التي يمكن تجميعها كل بضعة أشهر وتترجم إلى قيمة مالية)، فطلبت مني الفتاة الرقم السري لكارت اكتساب فإذا بها تفاجئني أن به 570 جنيهًا، وأن عليَّ فقط دفع 240 جنيهًا بعد خصم باقي قيمة ما اشتريت من كارت اكتساب.

كدت أرقص من السعادة لأنني وفرت 500 جنيه دفعة واحدة، وكان أعلى طموحي حينها أن أحصل على عشرة جنيهات هي فارق المطلوب مني عن المبلغ المطلوب سداده، فعدت إلى البيت في حالة من النشوة زادها الشاي الأخضر بالياسمين.

***

العابرات لا يمنحن الأمان يا حسن، ولا يقبلن دور الأمومة في حياة معشوقيهن، العابرات كسالى ولا يتقنَّ الصبر ولا احتواء الآخر/العابر كذلك في رأيهن، فليس لي أن أنتظر البكاء بين ذراعي إحداهن كطفل يبحث عن أمه التي فارقته منذ عشرين عامًا أو يزيد، فليس سرًّا أن بعض الزوجات لا يحترفن ذلك الدور هنَّ أيضًا!

لَحبيبة واحدة عبر السنوات طالت أو قصرت من يمكن ممارسة الهذيان كطفل مرتفع الحرارة في حضرتها، ولا مانع من الإسرار إليها بالطموحات التي تورث الحمى، وحينها ستجبر نفسها على تقدير الموقف، متعللة فيما بينها وبين ذاتها بالحرارة المرتفعة معتبرة أن تلك الهلاوس نتيجة طبيعية، وربما عرضت ممارسة الحب في محاولة متردِّدة لإثبات جدارتها بالبقاء قريبة أطول وقت ممكن، وعليَّ حينها أن أتناسى ذلك النبض المتسارع بين ضلوعي كي أظفر بلقاء مجاني بلا لوم ينتظرني في الأفق، ولشفاه رفيقتي تلك طعم محايد لكنه ممتع لأنها لا تستدعي لديَّ ذكريات من سبقنها في خيالي.

يكفي أنها لا تستدعي طعم شفاه تلك المرأة ذات الأعين النيئة التي كانت مزيجًا من القهوة والدخان وظننت واهمًا أنها ستشبعني، واكتشفت مع التجربة أن لجسدها برودة العينين النيئتين هو أيضًا!

لن تذكِّرني يا حسن بفتاة الثامنة عشرة التي انبهرت بي ذات يوم قبل أن أحل ضيفًا طويل الأمد على الثلاثين، نعم كانت فريسة سهلة، لكن نقص خبرتها حال بيني وبين رغبتي العنيفة في الاستمتاع حد التأوه نشوة والتذاذًا، كانت عاديةً أو أقل!

لن أستدعي تلك السيدة الشقراء ذات الأرداف الكبيرة بلا خصر منحوت ولا نهدين مشدودين رغم سخونة نظراتها التي استقطبتني

إلى فراش متهدِّل كجسدها! مارست العشق مع جسدها الظمآن إليَّ وحدي، تاركًا لها فرصة اختيار الألحان التي ستراقصني عليها، واختيار الأوضاع التي تروقها في الممارسة وأنا مغمض العينين والقلب وهي ترتشفني إلى آخر قطرة يختزنها جسدي!

أعترف الآن أن كل هؤلاء كنَّ عابرات يا رفيقي، لكنَّ لهديَّة طعمًا آخر يا حسن.. حتى تمنُّعها يغريني أكثر بالبحث عنها والإصرار على الاقتراب من عالمها.

***

لا أنسى قطرات الدم الحمراء فوق ذلك الفراش الأبيض الذي فقدت فوقه عذريتي بمنتهى الإحساس بالوجع ودون أدنى متعة تذكر، وكأنه نوع من الاغتصاب البطيء، المتكرر للأسف، ثلاثة لقاءات متتالية كل منها بلا متعة ويصحبه نزف متقطع وقطرات حمراء تعلن عن ظهورها مرة على الملاءة البيضاء وأخرى في كيلوتي الذي تشغل بياضه وردات حمراء ووردية وثالثة على طرف فانلته البيضاء كذلك، كإمعان في الاحتجاج أو ربما كإعلان لعدم الاستسلام لذلك النوع من الاغتصاب النفسي الذي استمر لسنوات حتى مع اختلاف الفاعل، فلِمَ يحترف الرجل فن الاغتصاب وفقط؟ أين ما يمكن أن يقدم لنفسه لو أنه قرر أن يداعب أنثاه؟ ماذا يضيره لو راح يرتشف شفاهها كمشروب المانجو الذي يفضله، أو يلتهمها كقطع من المانجو الذائبة داخل كوب اللبن المخلوط بالزبادي وعسل النحل؟

ماذا لو أنه راح يتحسَّس جسدها براحتيه ضاغطًا بأصابعه تلك النهايات العصبية التي يحفظ أماكنها جيدًا وفق فطرته المتمرِّسة بتفاصيل المرأة ومناطق إثارتها دون الحاجة إلى كتب يقرؤها أو أطباء يستشيرهم!

لماذا لا يتبع قلبه إن كان محبًّا، وسرَّه إن كان مشتهيًا كي يدلَّاه على أنسب الطرق لتبادل الحديث مع جسد الأنثى التي بين يديه!

لماذا يفضل صراخها على تأوُّهاتها المتلذذة المستمتعة؟ لماذا تشبعه أنات الألم المؤكِّدة ساديته على انفراج ملامحها وارتعاشها المبلل بالرضا!

كدت أسقط في البئر مرتين، بين نومٍ ويقظة في الظهيرة، قيلولة مثالية عقب صلاة الظهر وقراءة سورة الكهف من يوم الجمعة، وعلى

وضوء، وبعد تسبيح كثير أولاهما ظننت أن سببها أنني كدت أغرق في النوم رأسي على النصف الأيسر وأذني اليسرى مدفونة تمامًا تحته وأغلب جسدي على الجانب الأيسر، خصري إلى اليسار تمامًا وساقي اليمنى فوق اليسرى بميل دائري وبينهما وسادة ألقي عليها ثقل مؤخرتي.

ولكن المرة الثانية، بفارق دقائق قليلة، كنت إلى أقصى اليمين، بلا تفسير منطقي، ولا حتى خيالي!

ربما هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالفزع، فضلًا عن أنهما مرتان، في النهار الواضح وفي حضور شمس الظهيرة الساطعة.

قبيل قيلولتي كانت تقفز إلى خاطري نافورة من التساؤلات: ماذا يخفي هؤلاء الذين يملؤون صفحاتهم على الفيسبوك مشاركات إيمانية، وفقط؟! هل هم يعنون ما يشاركون حقًّا؟

إذن ماذا عن ذلك الشخص الذي كان يصغرني بتسع سنوات وكان دائمًا يعترف لي أنني مثله الأعلى، كان يحكي لي عن فتاة أحلامه ثم تجربة ارتباطه بها والخطوبة التي جمعتهما لعام وفشلهما أن يلتقيا على أرض الواقع، واختيارهما الانفصال كنهاية مأساوية لقصة الحب.

مرت السنوات وتزوجتُ، وتزوَّج بعدي بأعوام، وبعد أن انتهى زواجي قفز إلى حياتي بحكم الجيرة والقرابة التي تجمعنا، وبدأ يفتعل كل ما من شأنه أن يجمعه بي، وفي ليلة غريبة الأجواء هاتفني ليمرَّ عليَّ قبل أن يعود إلى بيته لأنه قد أحضر لي هديَّة ويرغب في إهدائي إياها قبل أن يعود إلى بيته لئلا تراها زوجته!

سمحت له بالمرور، لكنه لم يكن مجرد مرور، كانت هديته تداعب طموحات الأنثى المهتمة بمظهرها، من كريم لتفتيح البشرة وزيت مغذٍّ للشعر من ماركة معروفة غالية الثمن بشكل مبالغ فيه، كانت أي أخرى سواي لتطير فرحًا بتلك الهديَّة، ولكنني بسمتي الرجولي لم

أستطع اعتبارها هديَّة خاصة، ومع ذلك شكرته معلنةً عن تقديري لمجرد تفكيره بإهدائي شيئًا، وانتظرت أن يستأذن للمغادرة لا سيما أن الوقت متأخر، لكنه لم يفعل.

كنت جالسة على كنبة الأنتريه وهو جالس على مقعد منفرد، ترك مقعده ليجلس بالقرب مني، لأنه يود الاعتراف أمامي بشيء مهم!

راح يتلو على مسامعي آيات الحب الذي احتفظ به في صدره لسنوات وسنوات، ربما منذ خطا أولى خطواته نحو الجامعة، وأنا حينها قد أنهيت دراستي الجامعية منذ سنوات!

كان فارق العمر بيننا يوشك أن يجعل مجرد التفكير في أي نوع من العلاقة بيننا مستحيلًا، لكنه رأى أن هذا وقت التصريح بمشاعره المخبوءة، وساعدته شجاعته على الاعتراف بالحب، ليس هذا فقط، وإنما راح يعرض عليَّ الزواج بكل ثقة!

لم يكن مر على زواجه أكثر من عام، وامرأته تعاني أثر الفقد لولدها الأول بمجرد وصوله إلى الدنيا، وكنت كأم رؤوم أنصحه بدعمها والوقوف إلى جوارها لتتخطَّى تلك المحنة بسرعة وبضمان الحب، لكنه لم يكن يفكر سوى في نفسه، ورغبته المحمومة التي أسماها حبًّا، وراح يحاول الاقتراب مني في رجاء وتودُّد لم أرَ مثلهما أبدًا في حياتي لا قبل ذلك المشهد ولا بعده!

لا أنكر أنني تأثرت، وأوشكت أضعف، واستجابت غريزة الأنثى بداخلي للحظات، وربما لدقائق، سمحت له بقبلة، وضمة شديدة كأنها اعتراف ضمني منه بمشاعر ملتهبة، لم يكن لها تفسير بداخلي سوى الرغبة المحمومة!

حين انتبهت رحت أقاوم ذلك السيل الجارف، فلم أتمكَّن من بتره بطرقة سكين، بل كان عليَّ أن أمارس نوعًا من التخلُّص الهادئ من

ذلك السيل الهادر لئلا ينفجر في وجهي أو يقرر اغتصابي تحت وطأة اشتعال الرغبة متكئًا على قوته العضلية وطوله الذي يفوق طولي بنحو ثلاثين سنتيمترًا!

ساعدته بيدي على إفراغ شهوته حتى يستعيد عقله الذي سلبَته إياه الرغبة، وإن لم أستبعد حينها دعوى الحب التي تبخَّرت بعد أيام من ذلك المشهد، بمجرد أن ضبطته زوجته متلبسًا بمطاردتي خلال رسائله الغرامية الساخنة!

استطاعت أن تجبره على قطع أية علاقة بينه وبيني ورضخ لها لتستمر حياته هادئة، بل أظن أنه أوهمها أنني أنا من أطارده وليس العكس، فقد اختفى من محيطي تمامًا، ولم أكن أهتم بأخباره، لكنني كنت أتعجَّب حين أتذكَّر ذلك المشهد من إصراره، كآخرين لا أحفظ عددهم، على الوصول معي إلى أقصى درجات التجاوز، ما يجعل كل تلك العلاقات في النهاية مبتورة، ولا بديل عن البتر في علاقات لا تسعى سوى خلف غريزة وقتية تخمد عند أول لحظة قذف لا تستغرق سوى جزء من الدقيقة!

آه يا حسن.. تختفي الآن؟؟ تتركني في الوقت الذي كنتُ فيه في أشد الاحتياج إلى وجودك، إنه القدر من اختار تغييبك لئلا أدمنك بما يورث الوجع إن غبتَ في وقت متأخر أكثر من ذا، فلماذا أعاني مرارة الفقد مرتين، مرةً بغيابك ومرةً كلما حاولت استدعاء خفَّة روحك أو ضحكتك أو مشاكستك إياي بكلمة أو بمزحة أو ببثِّي مشاعرك (المخلصة) نحوي، حتى أنك صرت تتكتَّم أحاديثنا عن صديقك الذي اختارك لتمهِّد له طريق الوصول إلى جسدي الذي فتنه! أواه من (إخلاصك الظاهر) له، أواه من صراعٍ عشته معك لأيام وليالٍ ما كان أطولها! لكنك دون هوادة اختفيت فجأة، سيان عندي أنك

رحتَ تقضي إجازتك الشهرية مع أهلك وانسحابك غير المعلن من حياتي بعد أن رفضتُ مضاجعة صالح، صديقك الذي كان غبيًّا حين وسَّطك بيني وبينه، وظنَّ أنك ستتفانى في تقريبي إليه، لم يعرف أنك كنت سببًا في رؤيتي غيبًا، حين جعلتني أرى النسخة الأخرى من صديقنا المشترك، تلك النسخة التي لم أكن لأراها أبدًا لصالح إلا إذا جمعتنا الحياة في بيتٍ واحد لسنوات، وهذا ما لم يكن ممكنًا أبدًا لا في الماضي ولا في المستقبل، فقد جعلتني أرى ذلك الرجل المريض المشوَّه الضعيف مسلوب الإرادة إن صح التعبير، أسيرًا لامرأة هو من تسبَّب في استئسادها لسنوات حتى صار يخشاها أكثر من أي آخر في حياته، ما شوَّه ذائقته لكل شيء، بما في ذلك الحب!

رأيت بقايا رجل وبقايا ثقة وبقايا مثقف، بقايا من بقاياه، وليس سوى ضعف يتجسَّد أمامي في هيئة رجل مجوَّف، أرهقتَني يا صديق، وغبتما معًا، ربما إلى الأبد، الأبد الذي لا أدري إلى أين يجرفنا!

***

دعها لي، أحتاج إليها أكثر منك يا حسن، فأنا أعشق وجودها في هذا العالم، أدمن صوتها وأتدثَّر بضحكتها من برد الليالي وصقيع الروح، دعها يا صديقي، أنت رفيقي ومنقذي الدائم فلا تبخل عليَّ بها، دعني أنا من أواعدها وأبادلها الحب، دعها تراقصني برشاقتها المعهودة، دعها تصل بي إلى ذروة الحياة، أحتاج إليها أكثر من أي شخص، بحقِّ صداقتنا ودعمك لي اجعلها تحبني، نعم أثق أنك تستطيع يا صديقي، زيِّني في عينيها، واستثِر تعاطفها مع حالي، أَخبِرها كم أنا محتاجٌ إلى وجودها وإن ابتعدت عنها لتشعر بغيابي وتبحث عني، ولكنني لا أرى سوى أنها اختفت، ماذا قلت لها؟؟ ماذا فعلت لتجعلها تنساني؟ أم أنك لم تجمِّلني في عينيها مثلما طمحت وطلبت منك؟!

إياك أن تضيعني يا صديقي، أنت تعرفني أكثر من نفسي وتعرف أنني لو رأيتكما معًا في غرفة مغلقة فلن أشك فيك، ولكنني أنتظرها فلا تأتي، وأسألك فلا تجيب فماذا حدث؟ أخبرني يا صديقي، هل قالت لك إنها لا تريدني؟ هل أخبرتك أنها ما زالت تحب زوجها وأنها عدَّلت قرارها وستكمل حياتها معه؟ هل أخبرتك بشيء لا أعرفه؟ أخبرني ولا تبخل عليَّ، ليس معنى أنني كففت عن سؤالك عنها أنني أقلعت عن التفكير فيها، أنا أحبها، لست أشتهيها فقط، الفارق بينها وبين كل نساء الأرض أنني أحبها، هديَّة العابد في حياتي ليست أنثى عابرة، ولا شهوة وقتية، إنها حب العمر، ظننت أنك تفهم ذلك دون أن أقوله، أنت تفهمني أكثر من نفسي، وتعلم أنني عانيت في حياتي بلا حب حقيقي، وأنني انتظرت ذلك الحب حتى جاء على استحياء، ليس بالمواصفات التي كنت أطمح إليها، ولكنه جاء، وهذا يكفي، آه لو تعلم ماذا يحدث لي حين أسمع صوتها، وكأن نغماته تداعب قلبي قطرة

فقطرة فترويه من ذلك الظمأ البعيد الذي تغوَّل بداخله لسنوات، ساعدني، أعِدها لي يا صديقي.. اجعلني أشعر أنني لا أزال محتفظًا برجولتي وكرامتي بعد أن جاءت زوجتي على مرأى ومسمع من أبنائنا تعيِّرني بعجزي، وتشمت بفشلي في الاقتراب منها، وتفضحني أمامك وأمام أهلها حتى أنحني لها وأخضع لابتزازها، فجردتني من رجولتي، وليس فقط من كل ما أملك، جرَّدتني حتى من آدميتي، متحرِّية إيصال تلك النظرة عني إلى كل أنثى يهيِّئ لها خيالها أنني يمكن أن أراودها عن نفسها، متحريةً أن تظل الشاهد الوحيد على عنَّتي!

***

كلنا خونة يا حسن، أو كلنا ضحايا، ففي الوقت الذي كان صالح يقول فيه لامرأته (أحبك)، كان مؤيَّد يناديني يا حبيبتي وأنا أتأوه من فرط النشوة دون شعورٍ بالذنب!

وهو في حضنها وأنا في حضن مؤيَّد، كلما ضمَّها إليه أكثر ضمَّني إليه أكثر، كلما تأوَّهتْ أو تغنَّجتْ تحته أو فوقه تأوَّهتُ أو تغنجتُ تحت مؤيَّد أو فوقه، الفارق الوحيد أنه يتخيَّلها أو يتخيل سواها وهي تقنعه أنها تحيا معه ولأجله، وأن مؤيَّد يقر أنه يحيا معي ولأجلي ولا أستطيع أن أخمِّن ما بقلبه، فأتخيَّلك أو أتخيل رجلًا فحلًا في المطلق، كلٌّ منهما يمثِّل أو يقر أنه عاشقٌ لرفيقه، لكننا أنا وأنت معترفان أن كلينا عاشق مخلص لفكرة الجسد والمتعة الخالصة، والعشق مشتعل طوال فترة الممارسة لا يشغله سواها، ويحيا كلٌّ منا مع آخر مجتهدًا أن يتبسم في وجهه أو يمنحه شعورًا زائفًا بالحب والاهتمام، فلا أحد يتحرَّى التفتيش عما بالقلب إن كانت الممارسات تجتهد في إظهار الجانب المشرق لشريك حياته الذي اختاره من قبل طوعًا لكن رصيد الحب أو الاحترام قد تضاءل حتى نفد ونضب معينه.

هل شقَّت زوجة صالح رأسه يومًا ما باحثة عمَّن احتلته؟ هي تشعر تمامًا بأن روحه ليست معها وإن عاشرها خير معاشرة وضاجعها مانحًا إياها كل المتعة، وقد تكون قد رضيت منه بذا ولم تشغل نفسها بغيبٍ خبَّأه صدره وانغلق عليه قلبه دونها لوقتٍ طويل ثم ضاقت به فصارت تحاسبه بأثرٍ رجعي على القديم والجديد معًا!

وأنا، زوجي واثق أن حبي إياه قد غادر إلى غير رجعة، وأن ما تبقى له مني هو الإحسان فقط، وحق السنوات الست (نصف الجحيم الممتد) التي عشناها معًا، ولا أنكر أنني يومًا ما كنت أعشقه روحًا

وجسدًا، حتى جرَّف أرضي تمامًا، وقضى على كل مخزون الحب الذي كنت أنضح به دون طلب ودون إلحاح منه عليَّ، بل إنني كنت أتلذَّذ بعذاباتي في هواه، لم أكن أتخيَّل أنني يومًا ما سأكفُّ عن ذلك الحب، لكنني كنت في الليالي الصافية أبتهل إلى الله وأبكي بكل ما أوتيت من دمع أن ينزع الله بذرة حبه من قلبي وأن يبدلني منه السكينة والهدوء، ولم يكن في حسباني أنه سيبدلني منه حبًّا جديدًا، أو وهمًا جديدًا، أو عذابًا جديدًا على الأرجح، ولم أهتم لشيء سوى أن أتخلَّص من ذلك الداء العضال الذي كان قد أوشك على افتراسي حتى أنني رحت أعاينه أعراضًا لمرض بالقلب زالت بزوال شعوري بهذا الحب الذي عذَّبني أكثر مما فعل بي أي شيء آخر.

***

المرأة يا حسن.. سر العذاب أو سر النعيم لرجُلها! ماذا لو أن هديَّة كانت امرأتي الوحيدة وأمًّا لأبنائي؟ أولم أكن لأتشوَّق أن أعود إلى البيت الذي تنتظرني فيه بكل تلك الرومانسية التي تحترفها؟ ألم تكن لتجعلني هذا الفارس المشتاق إلى صولاته وجولاته في الحب؟ ألم تكن لتقرأ ما أكتب، وتناقشني فيه، وتضع معي سيناريو مشاهدي ورواياتي؟ ألم تكن لتحتضنني كامرأة بارعة في الاحتواء؟! آه يا صديقي لو أنها كانت المرأة الأولى والأخيرة وما بينهما! لما كنت الآن شاعرًا بالهزيمة، وظانًّا عن نفسي النقص والعُنَّة والعجز اللانهائي!

هل بإمكاني أن أغير الماضي الآن؟! وهل تعود الرصاصة المُطلَقة إلى فوهة البندقية؟!

***

دعني أحكِ لك يا حسن، فحين تزوجت للمرة الثانية اكتشفت أنه رجل شرقي بامتياز، لدرجة أنه أجبرني على التخلُّص من قمصان نومي وملابسي التي ظنَّ أن من سبقه كان يتغزَّل في مفاتني ويمهِّد لمضاجعتي وأنا أرتدي شيئًا منها، فعلت ذلك بكل حب وتسامح دون أن أحمل همًّا لعدم وجود تلك النوعية من الملابس في خزانة ملابسي، وحين أهدتني إحدى صديقاتي قطعتين في منتهى الرقة ومن ماركة معروفة، كنت أظن أنه سيبتهج حين أرتدي أيهما من أجله، لكنني فوجئت برد فعله الذي أحبطني فجعلني أمتنع عن مجرد التفكير في ارتداء أيٍّ منهما لأشهر.

الليلة كنت أشعر أن بداخلي رغبة لأدلِّل نفسي، أو أتخيَّل آخر مجهولًا يدلِّلني، فقرَّرت أن أرتدي أحدهما دون اكتراث بأي رد فعل يصدر عنه، قميص قصير جدًّا من الشيفون، بالكاد يغطي ثلثي مؤخرتي ويكشف عن معظم مثلث كهفي الذي تتناثر فوقه شعرات بعضها مبيضٌّ تمامًا، ربما كعلامة على أنني شبتُ كثيرًا بعد الأربعين، ويتدلَّى فوق ساقي اليمنى شريطان طويلان أعقدهما على شكل (فيونكة) لا تستر شيئًا وإنما توحي بتهيئة مزاجي للرقص، ربما، ارتديت فوقه روبًا من القطيفة ليقيني لسعة البرد المنتشرة في الجو لا تزال إثر شتاء قصير حاد، ربما يشبه سلاحه مؤخرًا، نعم مؤخرًا، فقد كان أكثر نضارة وحيوية مما آل إليه في العام الأخير، وقد تكون تلك نتيجة طبيعية للاقتراب من الخمسين.

جفَّفت شعري القصير بالسيشوار، وجاء بحركة طفولية قافزًا على السرير وملتحفًا البطانية القطيفة مدَّعيًا أنه سينام، انتهيت من تجفيف شعري وتركت الغرفة للحظات تخلَّصت فيها من الروب ثم

عدت، سألته إن كان يحتاج إلى النور أم أطفئه فرد ردًّا عائمًا فقرَّرت معاقبته بإطفاء النور، ولم أترك سوى تلك الإضاءة الخافتة التي نحتفظ بها قبيل النوم، وأنا أطفئ النور التفت فرآني كذلك فتمتم، (يا خفي الألطاف)، طالبًا مني أن أضيء النور مرة أخرى، درت حول الفراش وهممت بالجلوس فمنعني وطلب أن أعرض له نفسي وأنا أقرأ في عينيه الدهشة، فقد فوجئت أنا نفسي أن جسدي فاتن في هذا القميص بلونه الأسود الشفاف، رغم كراهيته ورفضه غير المبررين في رأيي للون الأسود، فهو لا يطيق أن يراني أرتدي الأسود أو الأحمر، وهما أفضل الألوان في ذوقي الشخصي!

المهم أنه في تلك اللحظة تحرَّر من رفضه للأسود انتصارًا لإسهام القميص في إبداء جسد حار وساحر أمام عينيه، وراح يمد يديه نحو مؤخرتي باشتهاء، ويلمسها لمسات حانية تتحوَّل إلى التهام بعد لحظات، ومداعبًا حلمتي نهدي من تحت القميص الذي يظهر أكثر مما يخفي..

ماذا لو أنني انطلقت في الرقص؟ كانت بداخلي رغبة عارمة أن أفعل لكن حاجز الخجل برغم كل ما حدث بيننا لم يسقط بعد، لم أرقص له قط في حياتي وإن طال اشتهائي ذلك، جذبني إليه محتضنًا إياي للحظات ثم ارتمى على ظهره كمن أصابته نوبة من الهبوط المفاجئ، هو لا يعلم أنني قررت شيئًا ولن أعود في قراري، أنا لا أريده، بل أريد استخدامه لأصل إلى النشوة مع شخص آخر مجهول حتى تلك اللحظة وربما إلى الأبد، أضاجعه في خيالي!

***

حين تخونك زوجتك ستجتهد أن تجعلك أسعد رجل في العالم كي لا تتنبَّه إلى خيانتها، وهي تنجح في ذلك بامتياز، وقد لا تنكشف إلى النهاية!

أنا آخر شخص في العالم قد يتوقَّع أن تكون زوجته خائنة، لقد أحبتني كل الحب، وطاردتني لعامٍ كامل حتى استطاعت الإيقاع بي في شباكها، ونجحت في الاستحواذ على قلبي في البداية ثم استدرجتني إلى حياتها وتسلَّلت إلى حياتي بمهارة فائقة وقصائد حب ملتهبة موجَّهة تمامًا إلى عقلي وقلبي معًا، في البداية أخذني الفضول ثم ملأني الشغف، ثم سقطت مقاومتي أمام براعتها في سحب الكلام من داخلي وإغوائي حتى أسلمتها كل مفاتيح شخصيتي، واكتشفت بعد محاولة فاشلة للهروب منها بأنني أدمنتها، والأكثر أنها بدأت تشغل مساحات كثيرة بداخلي، واكتشفت أنني أحب حضنها الأمومي، وهو أول ما أوقع بي في شباكها، فقد شعرت وهي تحتضنني وأنا أريح رأسي على صدرها بأنها أمي، وللمرة الأولى رغم علاقاتي النسائية العديدة أحسُّ بهذا الإحساس مع أي امرأة، ودائمًا ما عاشت أمي نموذجًا متفرِّدًا بداخلي بعد وفاتها وأنا بعد لم أشبع من حضنها، وإن كنت يافعًا حينها في التعليم الثانوي العام، وهي المرحلة التي كانت شخصيتي فيها تبدأ بالتشكُّل، وكنت مرغوبًا من كثيرات ولم أكن قرَّرت بعد أن أفتح أبوابي لهذا العالم إلا بدرجة عذرية نوعًا ما، مع تلميذة تكبرني بعام واحد، هي من أخذتني إلى عيادة الطبيب التي تعمل بها بعد المدرسة لتساعد أمها المطلقة بلا عائد مادي ثابت يمكِّنها من الإنفاق على ابنتها التي أصرَّت على تعليمها، وراحت تعلمني ممارسة الحب، دون أن أجرح عذريتها، ودون اغتيال براءتي الجنسية حتى تلك اللحظة!

بعد الحضن الأمومي بدأت أكتشف أن هديَّة تتحوَّل إلى صديقتي التي أعشق الحكي في وجودها وكأنني أتحدَّث مع نفسي، وكأن وجودها وأنا أفكِّر بصوتٍ أمامها يدعمني في عالم زهدت في أهله بعد أن خذلني وخانني أهم شخص في حياتي، ابن أبي وأمي، للأسف!

لقد صارت رفيقة دربي وصديقتي الوحيدة في مرحلة معقَّدة من حياتي، وصار حضنها ملاذًا لي من كل أوجاعي التي ظلت تحاصرني سبعًا عجافًا، فلك تكن مجرد أنثى أحببتها أو منقذة لي من أزمتي، بل صارت أملاً جديدًا أتشبث به لأبقى حيًّا وأنفض الغبار والأتربة من حولي مستعيدًا ذاتي من جديد..

لست أحكي لك، بل أكره وجودك في حياة زوجتي أكثر مما أكرهك أنت نفسك، وأكثر ما أكره صديقك الذي ألقاك في طريقها لأتألَّم أنا بوجودكما وغيابها عني، وأكره غفلتي والظروف التي عرقلتني عن الاهتمام بها والاستجابة لاستجداءاتها، فكم طلبت مني أن أكون بقربها ولكنني تجاهلت أو غفلت أو انشغلت بسبب ظروفي السيئة.

تلك امرأتي وستظل امرأتي وحدي رغمًا عن أنفيكما معًا، لن تراها ولن يراها صديقك ما حييت، ولن تكون لأيٍّ منكما ولا بعد موتي، تأكد أنني تعلَّمت درسًا قاسيًا وأنني سأبذل كل ما في طاقتي ووسعي لأستعيدها لي وحدي، وسأحرم أيكما أن يراها ولا حتى في أحلامه!

***

كنت أفتح عينيَّ على اتساعها لأدَّخر ملامحه ولأتشبَّع بها لئلا تتركني للحظة وهو بعيد، كنت أرغب لو أنني أتوسَّل إليه ألا يدعني ويرحل، فلديَّ من الحب ما يمتعه –ويروي ظمأه الذي امتد طويلًا– يرافقه الطرق جميعًا، ينساب حنانًا وحنينًا بين يديه، فلم تكن المتعة غايتي، ولم يشغلني الوصول إلى ذروة متعتي، بقدر ما شغلتني الرغبة في ارتشاف الحب من بين شفاهه، من أصابعه، من ملمس خدي على خده، من حضنه.

والآن قد استحال حضني باردًا يا حسن.. ليس ملاذًا مناسبًا للدفء، وليس ثمَّة مقعد شاغر بين هذين النهدين المهجورين، ليس سوى غربة، وبقايا آهة نصفها أمل، والنصف الآخر حرمان ممتد!

دعني أخبرك لماذا تزوجت مرة أخرى ولِمَ أريد الآن أن أنفصل: تعلم أن الوحدة غول، وأعلم، لكن الوحدة بعد أنيسٍ وجعٌ ممتد؛ الرحلة كانت أقصر مما اخترت فكان الشغف رفيقًا لطقوس أخرى، فالوحدة كانت السبب المباشر للبحث عن رفيق لكنني أخطأت التقدير حين ظننت أنني سأكتفي بنصف رجل، أو طيفه، أو شبحه!

***

الموت عزيز، وكم كنت عاشقًا للحياة، إذ يُدعى والله أعلم أن الدنيا قد جادت على أبي بكل ما لديها من معاني الحظ بعد مولدي في ليلة من ليالي رمضان – شتاء السنة السبعين من القرن العشرين، ومنتهى علمي أن ذلك الأب قد جاد على الحياة بكل ما عرفته الدنيا من معاني الإخلاص حتى حين جارت عليه عشرات المرات، ما ملَّ الإخلاص قط، وكانت لي أم تستطيع أن تُرسل إلى الله دعاءها في كل حين بلا كلل، وكان لها معه أسرار تحكيها له عندما لا يكون بينها وبين السماء حجاب أعلى سطح البيت، وكنت أسألها إلى من تتحدثين؟ ترد بثقة الموقن بالسميع: (باكلم ربنا)...

وكانت دومًا تحدثني عن محبة الله لي، وجادت عليَّ يومًا بوصية: "إياك تنسى كلام حبيبك النبي (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال)".

وأذكر أن كانت لها وصية وحيدة لإخوتي (مؤيَّد)، على الرغم من أنها قد تركت بنتين إحداهما مطلقة.

من عجب أن تبنَّى أبي نظرية أخرى عندما تخطَّى الخامسة والسبعين إذ أوصاني على إخوتي الذكور، بمن فيهم أكبرنا! فلم يكن بقلب أبي أي غضب عليَّ، وكذلك أمي.

لكم دعوت الله ألا يضيعني، وكانت له كلمة سائرة على كل أحداثي، ورحت أقاوم غضبي من موت أمي وأهرب من نكران وجوده والموت لا يزال ساخنًا، والعمر غض.

ولعجبٍ أن كان أمر إحساسي بفقدان أمي بعد عشرين عامًا من موتها، في نهاية عقدي الرابع، فصببت غضبي على الظروف، ومثلي لا

يقوى على غضب معلن مع ربه! وصرت أرى أن الحياة بلا دور موت مؤجل.

حين بلغني موت عمي بعد نهاية إجازة أول عيد بعد موته وكان قد مضى على موته عدة أشهر، وبعد مطاردة تليفونية للسلام عليه صبيحة يوم العيد واشتراك الجميع في الكذب عليَّ والتوافق على إخفاء خبر موته إلى أطول مدى ممكن، وهداني عقلي أن أتصل بابنه الأقرب إليَّ سائلًا: أين عمي؟! وكأني أواجه سارقًا رد: "عمك مات". لم ينطق بغيرها، فانهلت عليه بشتائم كيف لهذا الأبله أن ينطق بتلك الفرية!

دارت بي الدنيا كالغريق، اتصلت صباحًا معاتبًا الجميع فأخبرني أخي: "كنت في لندن وحدك، وكان من المستحيل أن نخبرك"، فخرجت من مكتبي غاضبًا وأخبرت سكرتير إدارتي بمغادرتي الرياض إلى المدينة، فرأيت سخريةً في عينيه وكأن مثلي ليس ممن يذهبون إلى الأماكن المقدسة، واستمرت دموع صامتة في عيني طيلة تسع ساعات بدعاء له ودعاء أن يغفر لي الله سوء ظني برحمته ذات يوم.

تلك المرة أنقذتني المدينة المقدسة من الغضب باستقبال استثنائي في روضة رسول الله (ﷺ) بعد موعد غلق المسجد النبوي بعشر دقائق بعد أن اشترطت على الله تعالى (جل شأنه) إن كان لي بقية من قبول لديه فتلك الأمارة، فضاعت عليَّ تلك الغضبة من تجرُّؤ الموت على أهلي ثانية.

فعمي (الإسلامي – الملحد سابقًا، عضو حركة حدتو) الذي كاد أن يفقد عقله بعد موت ابنه وابنته أطفالًا في عمر الزهور في عامين متتالين، فما كان له من ملاذ إلا الله – بعد صراع عقلي كاد منه أن يجن – وأنا علماني بالفطرة – بين الشك واليقين مع الإمام الغزالي في

الثانوية العامة، وصراعي مع عمي عن الإيمان، ذلك العم الذي استفز كل قواي العقلية حتى جعلني ألتهم كل كتاب أراه كالجائع وكان يتعمَّد أن يضع أمامي كتابًا يدَّعي أنه مشغول به حتى يشعل داخلي جنون التساؤل عن متى ينتهي منه، ويسأل أخي عن كتاب آخر، فقد كان بيتنا أيضًا عامرًا بمكتبة بعرض حائط كبير، وأخرى في الدور العلوي وأُجنُّ أنا الطفل المراهق ابن الخامسة عشرة وكأني نارٌ تلتهم الكتب ولا يعذرون حتى أن هذه السن قد تتوه في نظريات السياسة والأدب، وليس لي أن أقرأ وانتهى الأمر، بل كل يوم في امتحان (ماذا فهمت من ذلك الكتاب؟).

(وفاء) نسخة وحيدة في هذا الكون (أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، وَهَمٌّ لَا يَبْرَحُ مِنْ قَلْبِي).

مرض خالي مرض الموت ليلة دخول زوجتي المستشفى إثر سكتة دماغية فعجزت عن زيارته إلا مرة واحدة طيلة سبعة عشر يومًا ونظر إليَّ في تلك الليلة نظرة (فبصرك اليوم حديد)، وكأنه يعرف كل شيء، ولا ينطق بكلمة وفي عينيه انزعاج مما أنا فيه وعجز عن أن يرفعه عني؛ حيرة الأب ذي البصر الحديد فيما تجري به الأقدار من ابن أخته الشاب، وتركت خالي بعجزه وعجزي التليد بعد أن قرأت ما في عينيه تمامًا، وجبل الصبر يمشي على قدمين عائدًا إلى منزلنا في البلدة، ذلك الذي غبت عنه سنواتٍ عشرًا لأنام بضع ساعات كي أعود إلى القاهرة حيث زوجتي في المستشفى الذي ترقد به في غيبوبة منذ عشرة أيام تقريبًا، وكان أغرب ما تعرضت له في عام الحزن رحيل زوجتي ثم خالي ثم أبي في خمسة عشر يومًا فقط!

رأيت خالي الذي نزع من قلبي كل الخوف صغيرًا، بعد أن نزعه أبوه (جدِّي لأمي) من قلبه، يرتعد خوفًا في مقابر قرية مجاورة لمدينتنا

العتيقة كما أحب تسميتها ذهبنا إليها بعد منتصف ليلة قمرية رفقة مخاوي جن للحصول على أسحار دبِّرت لأخي بمعرفة حماته الأولى فعطَّلت كل حياته حتى الزواج، وكان لديَّ تصميم أن أخلِّص أخي من تلك المهزلة فورًا، وخالي يرجوني: "يا ابني احنا في مقابر بلد مش بلدنا لو أهلها شافونا هيبهدلونا"، فقلت له إن هذا لا يهمني، ولو كنت خائفًا فانتظرني مع أخي في السيارة! وأخي خجِلٌ مني ويداري خوفه، والمخاوي أضناه تحدِّي شاب عشريني أعمى القلب، فاختلى بنفسه على بعد أمتار ثم ناداني: "روح هات علبة السمن اللي هناك دي"، وإذا بها مليئة بالأحجبة المكيَّسة في بلاستيك فراودني الشك، وأعلنت أنني سأفتح الحجاب، فرد المخاوي بابتسامة رائقة: "افتح ووريني اسم أخوك".

– فيها ضرر يا شيخ؟

– ماتخافش.

– حاضر.

عاد الدم يسري في وجه خالي وأخي ثانيةً، وعدنا من حيث أتينا.

ونسيت كل أمر وتعجَّبت لخوف خالي؛ أيخاف هذا الرجل؟ لكن معه حق، فماذا يمكن أن يقول أهل البلد؟ حرامية جثث!

عدنا إلى البيت وفعلنا ما أمرنا به مخاوي الجن الشاب كثير الحياء وارث العهد عن أبيه ضرير العين بسبب عمل سفلي وحيد كما أخبرني ابنه.

أبي، جبل الشموخ، من علَّمني أنني كبير وأنني صاحب الكلمة المسموعة والرأي النافذ حتى في وجود إخوتي الأكبر، وقد يكون هذا ما جعل علاقة إخوتي بي تنقلب إلى الضد، فما الذي أوغر صدور إخوة يوسف سوى الغيرة من حب أبيهم واهتمامه الزائد بيوسف!

مات أبي بعد مرور خمسة عشر يومًا فقط على وفاة زوجتي، وفي منتصف المسافة بينهما مات خالي، ولا أقول إلا ما يرضي الله! فالموت لا يوجع الموتى، وإنما يوجع الأحياء!

***

الخذلان يا حسن!! لم يبقَ سوى الخذلان!! أوجعني يا صديق... كنت أنتظره وأنتظره وأنتظره، وهو هناك بلا اكتراثٍ يركض ركض الذئاب!

النهايات، ما أمرَّ النهايات وأقساها، أيامًا حسبتها عمرًا عاشني مثلما عشته، بوحًا تبادلناه كأصدقاء، مشاعر احتوتنا كأحبَّة، (مؤقتين)، نعم للأسف، مؤقَّتين مهما طال ادعاؤنا استمرارًا زائفًا، والأفظع، انسحاب بلا مبرِّرات، وهروب غير مفهوم، هي ذي الأيام يا صديقي، كنت أظنُّه صديقي، وظننتُك كذلك.

العتاب للأحبة؛ سأوفر عتابًا لا تفهمونه ولن تفهموه لأنكم لم تجرِّبوا أن تحيوا كبشر، فحياتكم شهوانية محضة وغريزة حيوانية هي ما يحرِّككم كدُمى في أيدٍ شهوانية لا تهتم سوى بإفراغ مائها وفقط، دون اهتمام بأنهم يفعلون ذلك مع أنثى أو قطة أو قردة!

كثيرًا ما صار يداهمني الأرق، وكثيرًا ما صرت أخشى أن أعاود النوم، ففي كل مرة جربت أن أنام بعدها يهتز جسدي فجأة وأصرخ دون وعي لأنني في تلك اللحظة التي كان النوم يبدأ فيها بالاستحواذ عليَّ ينقض على رأسي كابوس شرس يهز جسدي كذبذبات تيار كهربي متوسط، فأؤجل عودتي إلى الفراش لأقصى مدى يمكنني احتماله حتى يبلغ بي النوم حاجة ملحَّة لا أطيق تجاهلها، وأرضخ للكابوس عاجزة عن المقاومة!

الآن، أُشهِدُ الله أنني سامحتك، وسامحت زوجي وسامحت صالح كذلك، وأحمل كتلتي وحدي وأمضي، يحدوني لطف الله، وسلامٌ نفسي، وسأتخلَّى عن أية شبهة حقد تعروني نحو العالم، نحو الآخر، نحو الذات.

الله، دون كتلة معلومة يحتويني، تربّت روحٌ منه على روحي، فتشغلني عن الأوجاع، فقد توارى من عُلِّقهم قلبي لسبعة وعشرين عامًا أو يزيد، وحب الله يجبر كسر قلبي كلما تهتُ، وإن تهتُ تلمَّست بابًا جديدًا أواصل بين مصراعيه حلمي، وأبقى!

أظن أنه ما عاد مناسبًا أن أنادي أيًّا منكم صديقًا أو حبيبًا، ما عاد مناسبًا أن يظل أحدكم موجودًا بذاكرتي، ما عاد مناسبًا أن تظل أطيافكم في حياتي، ما أعمق الجرح يا رجل، ما أفظع الخذلان، ما أفجع الصدمة، ما أفدح الخسارة!

سأنتحي ركنًا أعاقر الصمت وأحلام اليقظة، وأجرب صوتي في مقاطع من آياتي أو ابتهالاتي المفضَّلة، سألقي بكم إلى ركن التذكارات السوداء، تاركةً إياكم لتتبخَّروا تمامًا من ذاكرتي، ولن أستدعي أحدكم نهائيًّا، كي تخملوا في أقرب فرصة، تاركين تلك المساحة وإن كانت في ركن التذكارات لمن هو أهم.

سأعدُّ مروركم حلمًا استحال في منتصفه إلى كابوس، قضَّ مضجعي ومضى، وأُنسيته بعد ليالٍ من النوم والأحلام المتشابهة.

هجرتني الكلمات، فصدمتي أكبر من أي كلمات، لم تكن أوقاتًا نضيعها ولا كانت ليالي عابرة لأشخاص عابرين، كنت واهمة أننا نؤصِّل لمستقبل سيجمعنا يومًا ما على الشفافية والصدق دون أغراض دنيوية زائلة، خدعتني نفسي، مثلما خدَعني هو، كان أهون عليَّ أن يصارحني بأنه ضاق بوجودي على أن يتهرَّب مني ويتجاهل رسائلي، سأكف عن امتهان ذاتي ولن أرسل إليه من جديد، وإن ظللت أكتب له، فما من شيء يمكنه منعي عن ذلك، لا هو ولا أنت ولا سواكما، سأظل أخاطب الرجل الذي صنعته في مخيلتي، رافضةً أن أقرنه بمن كانه في الواقع، بعيدًا عن اختفائه القسري وهروبه غير المبرر.

أوجعني يا صديق! أوجعني ثمن الصدق بلا ضمانات، أوجعني تبخُّره عند كل احتياج حقيقي بداخلي إليه!

اعتدت لقاء أنذال، لكنني لم أكن أظن أنه منهم، ولم تسمح لي نفسي أن أظنَّ ذا عنه، حتى بعد تجاهله الممتد، ورحت أتلمَّس له أعذارًا أنا من اختلقتها، ولم أسمح للظن أن يداخلني عنه، وتبقى احتمالية بعيدة أن وراءه سرًّا دفينًا قد يصلني يومًا ما، وقد يُغلَق دوني إلى الأبد.

آلمني يا صديق، أوجعني استمراؤه دمعي وكأنه يتلذَّذ به، علَّ الأيام تجيب استفهاماتي المتزاحمة ورجاءاتي المأزومة!

***

كم قلت لها يا رجل إنه لم يعد مناسبًا على الإطلاق أن أبقى أنا في المشهد وخيال أي شخص يمر على خيالها بأي شكلٍ كان، لا في الواقع ولا في الرسائل ولا في المكالمات ولا في أي مشهد، لأنها لو رضيت أن يكون خيال أي آخر بموازاة الصورة الأصلية فهذا يعني أنها استغنت عن وجودي في حياتها، وها أنت خير دليل أيها اللغز!

كانت تحكي لي أن ثمة بوحًا تريد أن تطلق له العنان، وأن هناك الكثير من الحكايات التي تريد أن تحكيها أمامي، أو فلنقل تتطهَّر من ثقلها وجثوم وطأتها على صدرها، ولكنَّني للأسف، لم أصبر، ولم أسمع، ولم أحتوِها أبدًا!

أعترف أن أقلَّ وصف يمكن أن أقوله عنها أنها كانت تمثِّل لي الونس والأنس، وأنني لم أكن أبدًا أشعر بالاحتياج إلى أي آخر يبقى إلى جانبي باستمرار في حضورها، وكأنها حقي المكتسب، وامرأة عقلي الوحيدة، ومؤنستي في ذلك العالم الذي اغتربتُ عنه بامتياز، فهل يحتويني صبرها، مثلما عوَّدتني، وهل سأجد لديها تفسيرًا مقنعًا لوجودك على أوراقها وبين أسوار عالمها الافتراضي؟! وهل ستستقبلني بالرحمة؟ أم أنها تعدُّ لي مشنقةً على مقاس ما سبَّبتُه لها من أوجاع وجراح لا تندمل!

***

لا أذكر أنني كنت كأطفال العائلة من جيلي يا حسن، وكان أكثر وصف يتردَّد أنني (سابقة سني)، مرت أعوام كشهور وأعوام كلحظات وأعوام كومض عابر، وإذا بي في الجامعة، كنت أتدفَّق شغفًا بكسر كل التابوهات التي تغلِّف بيئتي المحافظة، اخترقت قائمة الممنوعات المبدئية عني، كان ما يزيد على ثلثي أصدقائي ذكورًا، لم تكن لي صديقات بمعنى الكلمة ولا بالاستمرارية ذاتها التي حدثت مع أصدقائي الـ(صبيان) مثلما اعتاد مؤيَّد أن يمزح معي بتشبيهي بهم، أضحك كطفلة بريئة براءة حقيقية لم تلوِّثها خربشات الزمن وسكاكين الواقع حين يقول لي مازحًا: "مش باقول لك كنتي ناوية تبقي صبيان!"

وعلى ألم ذكر البوح دعني أبُح بما يعدُّ اعترافًا بأفكار لم تتعدَّ حدود العقل الباطن، تمرُّ بخاطري أبعد من اللحظة التي قرَّرت كتابتها فيها، هل تدري أنني خشيت ذلك الوسيم الممشوق، ذا الجسم الرياضي، منذ التقيته للمرة الأولى فقرَّرت في خيالي دون حوارٍ معي حتى، أن أتعامل معه بشيء من العدوانية لا يسمح بأدنى مساحةٍ للاقتراب!

قد لا أكون جريئةً بما يكفي، ولكن يكفيني شجاعة اعترافي تلك، وبوحي أمامك بأنني كنت أتكئ على وجود مؤيَّد بحياتي وأستمدُّ منه القوة، يكفي أن احتلاله مساحة قربٍ بقلبي وعقلي يمدُّني بأسلحة لا أعيها، ويجنِّبني خوض معارك فاشلة، فلي أن أعتزَّ بصراحتي وإن آلمتني، وأنا أذكر كم كنت أتألق بين يديه، ويروقني احتضانه إياي، وترضيني ارتعاشاتنا والوصول إلى قمة العشق، ثورة المنتهى، روعة الأسئلة.

ولكن ليس دومًا سيجعلني الحب أكتب، أومن أن اللحظات السعيدة حين نحياها لهي أقوى أثرًا في نفوسنا بدلًا من محاولة

الإمساك بها وتشريحها عقليًّا ومنطقيًّا، فالسعادة كائن هلامي بلا رأس.

والرجل الذي في صوته اليمام، نعم، أحببته، ربما من أول لقاء، قد يكون احتلَّني، احتللته، أو تبادل فضول كلينا شغفه بالآخر، لكنَّ لقطة معينة هي ما أعلنتنا حبيبين، فليس صعبًا أن نؤرّخ لأحداث حياتنا، لكن بذات الوقت ليس سهلًا أن نتجرَّد من ارتباطنا ببعض الأشخاص حين نقرَّر أن نرسم ابتعادهم عنا سواء بريشة الألوان أو بالكلمات.

***

هذا ما كانت تكتبه عني قبل ظهورك في حياتها... قبل حتى أن أتزوجها:

"الأيام، يا مؤيَّد، ليست طوال الوقت تلعب لصالحنا، قد تسدد ضربة في مرمى أماننا النفسي كل فترة، الأهل، حالة من الاعتياد، ربما ننفك من عناكبها شيئًا فشيئًا، حتى نأتي على خيوطها جميعًا، فنكتشف أننا نتشرنق حول خرافة أخرى بتفاصيل جديدة، وبدايات موجعة، حتى يسقط في أيدينا فنعشق الفتنة مثلما نتعلق بطرف البحر حين يرخي بموجته، على أقدامنا المغروسة في رمل الشاطئ فيزيح عن أقدامنا الرمل، مغطيًا أفخاذنا بمساحة أنعم وأغزر من حبات الرمال، وشمس الضحى تتدلل فتقرر أن تلسعنا كنحلات فارة من خلاياها المرهقة، وتسبغ جباهنا بلمى القمح في موسم حصاده..

الأمان، يا مؤيَّد، هو وجودك بالأفق المحيط، أن أفتح عيني فأرى غمازتيك تعانقاني، أن أذوب بين راحتيك

الأهل، بالنسبة إليَّ هم عيناك، أصابعك، غمازتا خديك، شفاهك، أن أحبك ألفًا من المرات، بل مئات الآلاف في شغف وفضول لا ينتهيان، لذاتك وصفاتك، أحداثك، والغيب، احتراف الحب يا مؤيَّد يأتي من وحي احتوائك إياي، من نبلك، من عشقي عينيك، من ائتلافنا، انسياب بوحنا بيننا، اهتدائي بروحك، انطلاقتي وتدللي بين يديك.

هل تدري أن كلاً منا علاج للآخر؟ نعم علاج، لا تتعجَّب، ليس بالحب وحده تستمر الحياة، فكثيرًا ما نحتاج إلى آخرين لنشكو إليهم من محبوبينا، أو نشاركهم سعادتنا بهم، أو نتغزل فيهم أمامهم، وأروع ما بيني وبينك يا مؤيَّد أننا نلعب الأدوار جميعًا معًا، فذا هو اكتفاء كلٍّ منا بالآخر عن الدنيا ومن فيها، وما فيها..

دعنا نتعكّز كل منا على الآخر، لنتعدى إحباطاتنا وميلنا إلى الكآبة، خلني وطنك، مثلما أستوطن قلبك، لا للإحباط، اليأس خيانة، وطوال الوقت اليأس خيانة، وأظل أتمنى أن ألتقيك كل الأيام وكل الليالي، أتمنى أن أستيقظ من نومي على أنفاسك تعبئ فراشي الأبيض، وحضنك الـ(أتوسده) حريرًا وقطيفة، أستحلب ريقك، شهدي، وارتوائي، واندهاشي، أتدري أن لشفاهك مذاق الحب المطعم بالدهشة والرحيق!

يا مؤيَّد، ثمة بوح واعترافات، فلا تخلِّ الواقع يكبلنا بأساوره الحديدية، حبنا أقوى، فلا داعي أن نتعثر في أكوام الهموم التي تملأ الطريق إلى اليقين، اليقين الذي عرفناه، وذقنا من شرابه مرات..

مرات أدركتنا انحرافات وانجرافات، ولم نستسلم، ولن..

الفكرة بنت الله، شيءٌ من الجرأة لكنه لا يعدو تدلُّل الصغار على أبيهم! طمعًا ربما في قُبلة، أو قرص من الحلوى، أو قالب من الشوكولاتة الطازجة..

الله، هو من علمني الحب، الحب، دستور السعداء، رغم أنوف المتجبِّرين، والسفهاء، وذوي الأحقاد، الحب، أكرِّر، رُوح الله، كلمته، رحمته، وإنما أرواحنا، كلمات من كلماته، أرواحنا، عبق الفكرة، ضوؤها ربما، تبلورها في كيان، سكنت أجراس البلدة، مآذنها، سوى من صوت يرتِّل، يا مؤيَّد، إن الله حب".

هذا عتابها لي في الليالي التي كنت أتأخر عنها فيها:

"واقرٌ عقابك في القلب، سؤال مهم: أهو عقاب لي وحدي؟! أليس حرمانك من صوتي عقابًا لك مثلما أن حرماني من صوتك عقاب لي؟! اليمامات النائمة في صوتك لا تستيقظ إلا حين تراني، أنا من أسمعها تزقزق على نغمات رؤيتك إياي، إذن فهل ترفق بنا؟!

فكرت للحظات أن أكفَّ يديَّ عن البوح قليلًا، ربما تستطيع التقاط أنفاسك، فالحب حد التخمة أحيانًا يعيي القلب مثلما تعيي المعدة كثرة الطعام، وأنا أغمرك بطوفان جارف من الحب والاعترافات، لك هذا أيها السابح في دمي، سأهرب إلى بلدتي البعيدة ليومين، ربما أنطقتك الوحشة، أو استأثر بك الشوق، فما رشق الخنجر في قلبي إلا لك بكل الحب، دون أن تدرك تماما أنني سأنزف أكثر كثيرًا مما توقعت، والنتيجة أنني أنزف ما زلت، وحين يسألني الرفاق أراوغهم تمامًا، وما عاد لديَّ خيار الشكوى منك، فأغار عليك من نفسي إن حاجَجَتني فيك يا مؤيَّد! عد كما أهوى وتهوى".

فبم تتعلَّل الآن؟ ماذا ترى بين كلماتها؟ ماذا أظنُّ أنا؟ وكيف اخترقتَ أنت القمقم الذي اختارت أن تتقوقع بداخله مؤخرًا، أم كيف سهوتُ أنا عنها إلى هذا الحد؟ كم أشعر بالخزي يا هذا وأودُّ لو أنك صرتَ خيالًا محضًا في خيالها المريض!

***

لن أكفَّ عن الاعترافات، لكنني سأحاول التصالح مع ذلك الوجع الكامن هناك، في تلك المنطقة المحتلة، تورَّطت بوعد تجاه شخص يعشقني، لكنَّ لحرارته المرتفعة دومًا في صدري طغيانًا ممتدًّا، لا أفتأ أراوغ ذاته في حضوره، وألتهم صوته التهامًا، أبارك لعنته كشيعي متطرِّف يحترف اللطم، أتلذَّذ بحبه لكن إيقاعه البطيء يستفزني، وانفصاله عن الواقع يباعد بيننا آلاف الأميال كل ليلة!

وكلما مر الوقت تأكدت قراءتي الأولى، فثقته بذاته كانت أهم صفاته، ولا حدود لها، في غير غرور، وظللت أجتهد في قراءته كهواية ومتعة بالنسبة إليَّ، ورحت أصنع بنفسي إلهًا أتعبَّد في محرابه، ولم أكتشف أن الثقة انكسرت والتميُّز قد انطفأ وحلَّ محله الإحباط والاكتئاب الدائم، وتصديق الخرافات!

***

الحب وحده هو ما كانت تحسُّه نحوي، وأجزم أنها لا تزال تعشقني، ولكن غيابي تلك المرة جعلها وحيدةً دوني، يتيمةً دوني، تائهةً دوني، دوني أنا فقط، وبمجرد عودتي واحتوائي إياها من جديد ستنسى أنك كنت موجودًا يومًا ما، ستُسقِط من ذاكرتها مثلما تتساقط التفاصيل التافهة واليومية، كما تتلاشى من ذاكرتها أنواع الطعام التي تعدها على مائدة الغداء كل يوم، أو أكياس الاحتياجات المنزلية بعد تفريغ ما بها، سوف تتحوَّل إلى عدمٍ يا أيها المتطفِّل على طاولتي، فكن بعيدًا إلى الأبد.

لقد تعلَّمت الدرس، وأوجعتني الصفعة القاسية، لكنني لن أجعل هديَّة تشعر أبدًا أنني عرفت بوجودك في حياتها لأيام تمثِّل دور المستمع، بل لن أجعلها تذكر اسمك يومًا بعد الآن، سأستعيدها ولو كان الطريق إلى استعادتها جثَّتك أيها الأحمق المتطفِّل!

***

كان عليَّ أن أسجِّل شهادتي للتاريخ يا حسن، وأعرب على سماء فيسبوك أنني مصرية أحيا في القاهرة الكبرى: الجيزة حيث أقيم والقاهرة حيث أعمل، لا يشغلني فيروس كورونا بقدر ما يشغلني التحكم في الحميمية، مصري يعني المصافحة بحرارة والقبلات الأربع تنطبع بكل الدفء على الخدين، مصري يعني الحضن العميق بعد أسبوع غياب، مصري يعني الالتصاق في مساحة صغيرة وصديقي يجلس على ساقي إن دعت الظروف، مصري يعني أن نقضم من نفس الساندوتش ولو كنا خمسة، ولقمة هنيئة تكفي لمائة، مصري يعني لو أن غرفتي بها سرير واحد فهو يتسع لي ولصديقي الآتي من الغربة، سيان أسوان أو الإسكندرية أو روما أو إسطنبول! مصري يعني طبق الفول للجميع، والرغيف للجميع، وكيس الشيبسي للجميع كذلك، مصري يعني حين تشعر حبيبتي بالبرد أخلع معطفي وأدثِّرها به، مصري يعني أن أقشِّر اللب بين أسناني وأطعمه لطفلي في فمه، فمن يقنعني أنني سأسلِّم من بعيد وأكتفي بكيف الحال ولعلكم بخير؟!

أكثر من نصف المصريين يقبلون بالموت حميميةً ويعافون الجفاف في المعاملة؛ تعدَّدت الأسباب والموت آتٍ لا محالة، من يشعر بالذعر لأن آخر قد يكون مريضًا محتملاً صافحه فعليه الالتزام بتعليمات الوقاية فورًا، ولكن هؤلاء الذين يقدِّسون الحميمية حتى وإن كانت تحمل أسباب الموت سيعيشون طويلاً، وسيعمرون الأرض ويخرجون ألسنتهم لفيروسات الدنيا كلها واثقين أن الله محبة.

التقيته بعد غياب، ذلك الرجل الذي كنت أودُّ لو أنه أصغر عشرة أعوام فقط، عشرة أعوام أستمتع فيها برجولته الفائقة حسبما أقرأ في عينيه الذابلتين بعد أن نيَّف على الخامسة والستين، صاحب أجمل

وأعمق صوت التقيته في حياتي، كم كنت أشعر بالشوق إليه، مددت يدي من فرط الوحشة لأصافحه فارتبك، لكنه مدَّ لي (طرف كُمِّه)، وفي اللحظة التي لمست أصابعي فيها كُمَّ بذلته قرأت الرعب والذعر في عينيه وثمة اعتذارٌ مكبوت فحواه أن العمر أغلى من الوحشة!

غُصتُ في عالم بعيد وهو يُطري جمالي وشبابي وتألُّقي كعادته، مادًّا أطراف أصابعه إلى ظهر المقعد الخشبي، لامسًا الخشب! كنت أتأمل ملامح وجهه الذي أطفأ الزمن أكثر من ثلثي شبابه، وتكفَّل المرض بالثلث الباقي، فبعد الستين كل ملامحنا تتغيَّر، وتبدأ أرواحنا في تقبُّل الأمر الواقع معترفةً بالهرَم، وأنا أقول له في نفسي: وحدك من تشعر بذلك فصدَّقت روحُك هِرَمك، وأما أنا فما زالت روحي ترفض أن تصدِّق أنني أوشك على منتصف الأربعين، بل إنني أشعر أنني في قمة الشباب والحيوية، وروحي بهيَّة مبتهلة إلى الله أن تظل كذلك إلى الأبد، ترى ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان أصغر عشرًا، أو كنت أكبر عشرًا؟؟ هل كان لنا أن نتزوج فعلاً؟! ربما.

ليست لديَّ شرفة أطل منها على الشارع، ثمة أصوات فقط: تغريد عصافير، نباح كلاب، حركة قطارات قريبة جدًّا، إذ لا تبعد محطة القطار المركزية عن بيتي سوى نحو مائتي متر، وهناك على نحو أقل بقايا بشر؛ نداء بائع الخضر الذي ظل مداومًا على عمله: (حمرا يا قوطة، بتاع العصير يا برتقان)، وإن كانت اليمامات والعصافير تتبارى في الهيمنة على الفضاء المحيط، فلا يقل صوت أيٍّ منها عن الأخرى جمالاً وعذوبة، وكأنها تتشارك الاحتفال باختفاء الانسان تدريجيًّا من العالم!

ارتديت ملابس الخروج باعتناء شديد، فلا كيلوت به خدش أو ثقب، ولا مشدَّات صدر بأقفال مستعصية على الفتح، مع الحرص

على أن يكون القميص الداخلي من القطن الخالص، تحسبًا لأي ظرف، فلقد سمعت أن الوباء الذي عمَّ العالم كله مؤخرًا قد ينهي كل شيء خلال ساعات، ولا أضمن أنني لو غادرت منزلي فثمَّة عودة إليه مرة أخرى. قرأت كل آيات الحفظ التي أسعفتني بها ذاكرتي، واستودعت الله أبنائي النائمين في فُرُشِهم، وخرجت بعد انقطاع عن الشارع خمسة أيام أو يزيد، وكأنني أرى الشوارع بعد فترة نقاهة من مرض عضال!

كلما كنت أتعرض لهذا المشهد كل شهر وأنا أتسوَّق كنت أشعر بشيء من الحنق لأن زوجي كان من الممكن أن يكفيني مؤونة حمل كل هذا العدد من الحقائب بين يدي، وكفاني هذا الألم الذي يظل يراودني لأيام بعدها لو أنه فقط شاركني رحلتي الشهرية إلى السوبر ماركت لأبتاع الاحتياجات المنزلية.

أو تدري أن تلك هي المرة الوحيدة التي لم يكن بداخلي أي حنقٍ تجاهه؟! تسألني لم؟! لأنني الآن أرى الحقائق مجردة، فهو بعيدٌ عني لعشرة أيام متواصلة، ولا أتوقَّع حضوره (ضيفًا) مثلما اعتاد مؤخرًا قبل أسبوع، وربما أكثر، فأنا المسؤولة الوحيدة عن طعام أبنائي وطعامي، وهو ليس ملزمًا أن يحمل عني همي الشخصي أو أعبائي الأمومية ولا المنزلية! إلى هذا الحد صار غريبًا؟ نعم، للأسف، لقد صار كذلك وأكثر، حتى إنني أصبحت أحكي لك أكثر مما أحكي له، أو كنت حينما كنتَ أنت موجودًا، وأما الآن فإني أحكي لظلي القاتم على الجدار!

أو تدري لماذا كنت أعشق وجودك يا حسن؟ لأنني لم أكن أخشى أن تظهر روحي أمامك عارية، أنا بطبعي لا أتقن استخدام الماكياج، ولا أحبه، ربما آخر مرة أذكر أنني كحلت عينيَّ فيها كانت قبل سنوات،

ولا يشغلني كيف يراني العالم، كل ما يشغلني أن أعبِّر عما بداخلي دون قلق، ودون حسابٍ للمابعد، فحين أشعر بالبهجة أعبِّر عنها مثلما هي، مادة خالصة، دون إضافات، وحين أشعر بالأسى أو حتى بالبؤس أصوِّره كما أحياه بلا تزيين أو تزييف.

أنا روح هائمة، أو قد أكون كذلك في أكثر الأوقات، لا شيء يشغلني سوى اللحظة التي أحياها، لا أفكر ماذا سيكون غدًا أو بعد ساعة، كل ما يشغلني هو ما أشعر به حالاً، مرَّنت نفسي لسنوات أن من استغنى فأنا عنه أغنى، ونجحت بنسبة مُرضية جدًّا لطموحاتي في هذا الأمر.

هل تعلم أنني أشعر تمامًا أنك صرت مؤخرًا شخصًا آخر يختلف عن ذلك الذي عشقت البوح في حضرته؟!

نعم أشعر بك دون أن ألتقيك أو أشاركك أحداثك الخاصة أو اليومية، أو ربما يُخيَّلُ لي أنني كذلك، لكنني تعلَّمت مؤخرًا ألا أظلم الآخر على غيبٍ لم أطَّلع عليه، ببساطة ودون تعقيدات أنا في غنى عنها، وسأظل كما أنا، أطرُق أبواب أولئك الذين أشعر أنهم ما زالوا بداخلي ويمثِّل وجودهم في حياتي قيمة، حتى لو لم أكن كذلك بالنسبة إليهم، وحتى لو لم يكن لي أدنى حضور في حيواتهم أو حتى في أفكارهم وخيالاتهم، ببساطة لأنني صادقة مع ذاتي، وأعشق هذا النوع من الصدق، وأهوى أن أدعوه شفافيةً نفسية، ووضوحًا مع الذات، وضوحًا يشبه اعترافي أمام الله بذنوبي التي أودُّ لو أنني أتخلَّص منها جميعًا باستغفاري عنها، ولكنني أعاود ارتكابها بمنتهى الضعف واللامبالاة، ثم أقرِّع ذاتي وأنهرها لأنها استجابت للحظات ضعفٍ كان ما أسهل أن تمر دون خسائر، لكن اندفاعي ذا الذي لم أحسن التخلُّص منه هو ما يجعلني أعاود نفس نوع الخطأ، وربما الخطيئة في بعض الأوقات.

سأحاورك مع ذاتي حتى لو لم تقرأ ما أكتب، يكفيني أنك ترافق أفكاري حين أكتب، وحين أشعر، وحين أنطلق في عالمي الخيالي محلِّقة نحو الما بعد، ذلك الذي قد لا يأتي أبدًا، وقد يأتي بطقوسٍ مغايرة مع شخوص غيبيين لا أعلم عن أيّهم شيئًا حتى الآن.

أومن يا صديقي أن الحياة فرصة وحيدة، ليس لها من بديل، وأن اليوم الذي ينقضي يقرِّبنا حتمًا إلى النهاية التي لا أحد يملك أن يخمِّن متى ستكون، ومن أجلِّ النعم التي مُنحناها أننا ننسى أن هناك نهاية، وأنها قد تكون قريبة جدًّا، أقرب حتى مما نظن.

ففي رأيي لو علمنا متى سنواجه النهايات لما خطونا خطوةً واحدةً باتجاه الما بعد، لأنه فقط سيقرِّبنا من ذلك الموعد المحتوم، فكان منتهى الرحمة أن نجهل النهايات، وأن نتحلَّى بالشغف الذي يحرِّضنا دائمًا على الحياة وعلى اكتشاف كل جديدٍ فيها.

تتهمني أنني أعشق التفاصيل، لا تدري أنني زهدت التفاصيل يا صديقي لأنها أثقلتني، صرت أكتفي من الآخَر بما يصدِّره لي، دون انشغالٍ بتفاصيله لأنني صرت أخشى شيطانها، أعترف بمنتهى الجرأة أنني لم أكن كذلك أبدًا، لكنني الآن –ودون خوضٍ في الأسباب التي ربما أتوقَّف عندها يومًا ما– أعترف أنني لا أحتمل ازدحام التفاصيل، لا سيما تلك التي تخصُّ سواي، فقد تخلَّصت مما يجعلني نهبًا لتفاصيلي الخاصة، فما بالي بما يخصُّ الآخرين؟! الحياة في هدوء واستقرار نعمة كبيرة يا صديقي، ولقد صرت بعد الأربعين أرهف حسًّا، أو قل أكثر تأثرًا بمفردات الوجع، فمشكلة قد تكون عابرة لصديقة تجعلني أبكي، أو حادث متوسط لصديق يجعلني أخشى فقدانه، أو مشهد كلب صدمته سيارة مسرعة وأحشاؤه مكشوفة على جانبي الطريق يجعلني أنتفض حتى تفرَّ دمعاتي على انعدام الإنسانية في عصرٍ رقمي

باقتدار، يغفل معنى الدم واللحم وينتصر للكيبورد التي تُجمِّد مشاعر الناس على عكس ما يظنُّ أولئك الشعراء والكتَّاب الذين أمطروا سماء فيسبوك بقصائدهم وقصصهم اللامنتهية، بتفاصيل وثرثرات لا نهائية كذلك، دون تقديم حل واحد لأزمة كتلك التي زلزلت العالم لأشهر متصلة ولا أحد يعلم متى ستنتهي، إثر وباء كورونا (كوفيد 19) الذي شلَّ حركة الطيران في معظم دول العالم، وضرب قروية الدنيا في مقتل قد لا يُشفى منه بسرعة، معطِّلاً كل شيء في العالم، وليس في الدول المنكوبة أكثر من سواها فقط، حتى أننا اكتشفنا أن الأسبوعين اللذين قرَّرت فيها حكومتنا المصرية وقف كل شيء يمكن توقُّفه غير كافيين للانتهاء من الأزمة، أو للقضاء على الفيروس فألحقت بهما أسبوعين آخرين، ولا أحد يدري إلى متى!

لقد زهدت التفاصيل حفاظًا على أماني النفسي وهدأة أعصابي المتوترة، حتى أنني أصبحت أحمل هم ذلك الوقت الذي أقضيه بعيدًا عن شاشة الكمبيوتر المنزلي لإجراء مكالمة هاتفية بحثًا عن أفضل مكان لشبكة الهاتف، وأحاول قدر ما استطعت أن أنهيها في أسرع وقت ممكن كي أعود لأواصل عملي.

لا شيء يبقى على حاله، فما عاد حديثنا متصلاً، ولا حكاياتنا دافئة، مجرد محاولات جلُّها فاشل أن أسرِّي عنك في محنةٍ آثرتَ ألا تشركني فيها بحجَّة أنها لا تخصُّ ما بيننا، ورغم عدم اقتناعي تركت لك الحرية في اختيار الوقت المناسب للبوح حسبما تراه أنت، ولا أستبعد احتمال اختيارك في النهاية ألا تبوح من الأساس، هذا حقٌّ لك وعليَّ أن أقبله، وليس لي أن أعترض بحجة أنني بقربك وعلى استعداد أن أشاركك بالرأي أو على الأقل بالاستماع، وبالاحتواء إن لزم الأمر.

...

قتلتُك يا حسن، قتلتُ كل أفكاري نحوك، قتلتُ أحلام يقظتي بك واشتياقي إلى وجودك الخرافي، أحرقتُ كل مراكبي التي كان من الممكن أن تصل بي إليك، وضعتُك على قائمة الحظر بالفيس بوك، وحذفتُ رقمك من هاتفي، وتنكَّرت لكل ما كان محتملًا أن يضعك في طريقي مرة أخرى.

أو تدري لِمَ؟ لأنني لم أكن امرأة خائنة، ولن أكون، ولن أقبل لنفسي أن أحمل جرمًا كهذا، وأنا في عقد الكهولة.

أقدِّس الحرية يا صديق، ورغم أفكاري القديمة أن الحب هو نوعٌ من التماهي بين الحبيبين وإسقاط كل الحواجز فقد اختلفت معتقداتي حين نضجت، أنضجتني التجارب، أنضجتني أوجاعي المتتابعة، وذكرياتي الثقيلة.

اشتقت إلى طعم البن، لكنني لا أرغب أن أشربه وحدي، القهوة تعني الصحبة، وأنا كائن اجتماعي بطبعي، لا أبحث عن مال أو شهرة، لكنني أتحرَّى البحث عن رفيقٍ يؤنس وحدتي ويحميني من نوبات الاكتئاب الحادة التي صارت تنتابني مؤخرًا، فكلما شعرت بانفضاض الناس من حولي على ماسنجر فيس بوك أو واتساب أشعر وكأنني موشكة على السقوط، الوحدة غولٌ: غولٌ ينهش أوصالي ويدقُّ رأسي بلا رحمة.

أوتدري أنني صرت كثيرة النسيان؟! حتى أنني أتهم نفسي أحيانًا بأنني على وشك الإصابة بحالة من فقدان الذاكرة الجزئي، كيف نسيت حين سألني رفيق أفكاري المتخيَّل عن الألوان التي أفضلها أن أذكر له أنني أعشق الأحمر؟ الأحمر الذي يعني الصخب والتألُّق والتحرُّر من أعباء العالم وأثقاله، الأحمر الذي يجعلني أشعر بالدفء وبالعشق وبالحب.

هل خشيت أن يتوجَّس من امرأة الأحمر هو لونها المفضَّل؟ أم فضَّلت الاحتفاظ بتلك المعلومة عن نفسي لأنها تكشف ذلك الجانب الذي أجتهد في إخفائه عن الآخرين جميعًا، بمن فيهم هو، الزائر الذي فتحت له عالمي (المفترض، وليس الافتراضي) باختياري، ذلك الجانب العاشق للحياة، وللحب، وللآخر!

أتعلم أن تلك الأزمة التي نمرُّ بها، ليس في مصر فقط، بل وفي العالم كله -وبعد العزل الإجباري للناس في المنازل- قد شحذت قريحة الكتاب والأدباء حتى جعلتهم ينسابون على فضاء الفيس بوك بكل مخزون حكاياتهم الشجية، بما تضمُّه من خصوصية وعمومية في الوقت نفسه، فكلهم يكتب ليتداوى يا صديق، وأنا كذلك، إيزابيل اللندي حين قالت ذلك كانت تحاول التداوي من الوجع الذي عضَّ قلبها أثناء المرحلة الأخيرة من مرض ابنتها الوحيدة (باولا)!

قمة الوجع في الفقد يا صديق، وقمة الفقد أن تحتاج من تنساب بالبوح أمامه دون قيدٍ أو شرطٍ فلا تهتدي، إما حبيبٌ غائب، وإما حبيبة متخيَّلة، وأما الواقع فشيء آخر، فلا أحد بإمكانه أن يصير مستمعًا جيدًا، فكلٌّ منا تنتابه شهوة الكلام إلى ما لا نهاية، وأنا أولهم!

قلتها لك مرارًا يا صديقي، لا شيء يبقى على حاله، اليوم كان آخر تعامل لي مع ذلك الموقع الإلكتروني الذي ظللت أعمل معه عن بعد لاثني عشر عامًا، أرهقتهم الأزمة العالمية في ظل هذا الوباء الذي لا يستطيع أيُّنا أن يخمن متى سينتهي، على أمل العودة إن تحسَّنت الظروف!

لا أحد يريد أن يشتري ثقافة مع قلة الموارد ووشك زوالها عند الكثيرين، كل ما يفكِّر فيه الناس الآن أن يؤمِّنوا مخزونهم من الطعام والدواء، ولا شيء سوى ذلك، لا رفاهية لشراء ثقافة يعتبرها الكثيرون

دون أزمة رفاهية حياتية، ويحيا آخرون دون أن يفكروا فيها من الأساس.

آه لو أنهم يعلمون أن الثقافة هي طريق الوصول إلى مجتمع بلا أمراض، وبلا أوبئة، وبلا خوف من مستجدات العالم الفيروسي لأنها تخلق الفرص لإعداد صنوف من الدواء المتأهب لقتل كل فيروس مستجد.

لا أزعم أنني لا أطمح في الغد، بل إنني أدمن أحلام اليقظة، وأراها نعمة عظيمة يحظى بها الإنسان، فإنني أحقِّق كل ما أتمناه في أحلام يقظتي، انطلاقًا من نظريتي في الحياة عن الفارق بين أحلام اليقظة والماضي، فكلاهما لا أثر له في الحياة المعيشة، غير أن الماضي يترك كمًّا من الذكريات التي قد تتجسَّد في أحداث حقيقية وكذلك عينية، تبقى آثارها وإن هي ذهبت إلى الأبد.

***

لم تعد تسأل عني، تلك المرأة التي يحتويني صوتها كوطن، وتحاصرني عيناها كشرطي يقظ كلما اتخذت قرارًا بإرغام قلبي على نسيانها، ويتردَّد صوتها في أذنيَّ قويًّا كصلاة يدمن ترديد وعظاتها الرهبان في الأديرة كل صباح.

نعم أنت تعرفني ربما أكثر مني، وتعلم أنني لن أكفَّ عن اشتهاء النساء الجميلات، أو حتى المتجمِّلات، لكن القلب له كلمة أخرى، لقد داريتها عن ذاتي وواريت مشاعري نحوها حتى عنك، أو تدري لم؟ لأنني لا أريد لها أن تطلع على تشوُّهاتي وعُهري، لا أريد لها أن ترى ذلك الآخر الذي يتلبَّسني وأنا أمارس حياة مفروضةً عليَّ وعملًا وضعتني تحت عجلاته سطوة أب متحكِّم شرس، وكأنني استحلت ثورًا لا عمل له في الحياة سوى أن يدور في الساقية، وكلما هاجت ذكورته أحضروا له أنثى تُسكِّن هياجه وتمتصُّ ما جادت به عليها طبيعته، وأمَّا قلبي وخلجات روحي ومشاعري فقد حُكِم عليَّ بأن تبقى حبيسة كمجرمي زنزانة (د) في مديرية الأمن!

نعم إنها لذلك النوع من المجرمين المسجلين خطرًا، والذين لا يهمهم أن يُحكَم عليهم في سبع جرائم أو تسع أو عشر في نفس الوقت، فلا يتورَّع أحدهم عن ضرب أحد السجناء ضربًا يفضي إلى الموت لأتفه الأسباب، أو شق صدغ أحدهم بشفرة موسي حادة بلا سبب، لمجرد إثارة الهلع في الزنزانة، أو الرهان على زحام تنتج عنه حالة من الفوضى قد تسمح لأحد رفاقه بتمرير علبة من السجائر، وربما سيجارة ملفوفة في زحام المشاجرة ومحاولة العساكر فض الاشتباك!

قرَّر السيد مدير الأمن تخصيص زنزانة (د) كحبس انفرادي لمثل هؤلاء المسجلين خطر، وهم في الواقع قلة حتى إنني لم أشهد في سنوات

عملي العشرين أكثر من واحد منهم ربما كل ثلاثة أشهر، وربما كل عام! ضمن المحبوسين على ذمة التحقيقات في المديرية.

هي لا تعرف مشاعري، لكنك تعرفني وتعرف على الأقل مدى رغبتي فيها، وفي الانفراد بها ولو لساعات، مهما وصفت لك فلن تفهم معنى أن ألتقيها الآن، وحدها من يمكن أن تفهم ضرورة ذلك اللقاء ولو لمرة وحيدة، فهل ستوفِّر لي تلك الفرصة يا خلِّي؟!

***

لم أعد أشعر أن شيئًا ينقصني، ليس زهدًا يا صديقي، أعي جيدًّا أنه ليس زهدًا، بل ليس أكثر من رضًا بما بين يديَّ، وإيمانًا بأن رفض واقعي لن يغيِّر شيئًا في حياتي.

إني أحببت الله، وشعرت أنه بقلبي حقًّا، ويمكنني أن أعترف الآن أن عشقي لليقين لم يمنعني عن ارتكاب المعاصي باسم الضعف أو باسم الحب أحيانًا، لكنه جعلني أوقن أن رحمةً تحيط بنا وتقدِّر بشريتنا الهوائية وقدرتنا المحدودة على احتمال الصبر، فالله يا عزيزي غنيٌّ عنا، لكنه يباهي بإيماننا الملائكة، وباستغفارنا كذلك، فليس معنى أنني أذنبت أن جحيمًا بانتظاري هناك في العالم الآخر، فليس لنا سوى الأمل في النجاة.

اليوم أبدأ عقدي الخامس، وأستطيع أن أقول ببال رائق وضمير مرتاح إنني راضية كل الرضا، وسعيدة بالوصف الذي فهمته للسعادة، أحب أهلي وأصدقائي في الله قبل أن أكون أحبهم لسبب، وأشعر أن حولي كثيرين يبادلونني الحب، حسبما يخيِّل لي قلبي، كما أنني الآن من منطقة الكهولة، أو النضج حسبما يتجمَّل بعض الناس، أرى أن الدنيا ومفاتنها تتضاءل، ليس بسبب فيروس كورونا وتوابعه، فمن يعرفني يعلم جيدًا أنني زهدت المتع الدنيوية بمقدار، وأن أملًا في الاحتواء لكافٍ لحالة ممتدَّة من السلام النفسي.

من هنا، من منطقة الأربعين أغبط نفسي على النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى رأسها الستر والصحة والرضا والقناعة.

لم تمر ساعات على دعائي بعام جديد لا أحتمل فيه ما لا أطيق، ولكنها إرادة الله، فبعيدًا عن كورونا وفواجعها، فإن لكل أجل كتاب؛ استوفى أبي أجله في الثامنة صباح اليوم، اليوم بالذات!

وشريط من الذكريات تدور بكرته في عقلي، أذكر بعض المواقف البعيدة جدًّا، من بين آلام الصداع النصفي شديدة الحدة ربما بسبب دمع غزير مكتوم لم أسمح له بالانفراج، منذ أن كنت بنت خمس سنين وأبي يحملني على كتفيه في رحلة إلى طبيبة بمصر الجديدة، وكنت طفلة ضخمة، ثم أذكر بعيد ذلك ربما ببضعة أشهر مستشفى حميات حلوان، وأنا أعالَج من دفتريا وأمي (رحمها الله) ترافقني تاركة أختي الرضيعة حينها مع إخوتي الكبار وهو يحضرها لها كل صباح ويأخذها في المساء لأن مبيت الأطفال غير المرضى ممنوع!

مشاهد أخرى في سن أكبر محفورة بذاكرتي لأبي، فكم كان يدلِّلني لأنه يشعر أن أمي مشغولة بإخوتي الأكبر والأصغر، فقد كنت ابنة وسطى، وكان أبي يعاملني معاملة خاصة لكثرة مرضي وأنا صغيرة وربما لأن ملامحي كانت تفوق عمري الحقيقي، ليس ثمة مفردات تسعف عقلي المشوَّش ولا جوارحي المفجوعة الآن فيه، وثمَّ غيابٌ آخر يعلن أني صرت يتيمة، وأمي هناك تتزيَّن في استقباله بعد اثني عشر عامًا من رحيلها!

صرت بلا أب يا حسن، ما أفظعها تجربة اليتم! حين فقدت أمي منذ اثني عشر عامًا ظللت في حالة ذهول ثلاثة أيام، وحين انفضَّ العزاء انقضَّت عليَّ غربتي فطعنتني في صدري طعنة غادرة لم تُشفَ تمامًا، وتركت جرحًا غائرًا ظلَّت آثاره حتى الآن، فحين يهاجمني الموت في الأعزَّاء أتجلَّد وأؤدي دور المايسترو في كل الأحداث حتى تنتهي كل طقوس العزاء، وهناك حين ألتقي وحدتي وغربتي أستحيل لوحًا من الثلج ألقاه طفلٌ ساذج في فوَّهة بركان ثائر، متخيلًا أن الثلج سيطفئ النيران!

...

الحياة بلا أب في يومها الأول صادمة، هل تدري معنى أن ركن البيت الثاني قد انهدم، وأن البيت منذ الآن سيكون خاويًا وإن تعاهدنا في فورة حماسنا على الالتزام بموعد أسبوعي نتجمَّع فيه أنا وإخوتي كي يظلَّ بيت أبي مفتوحًا، فلن نحتمل المواظبة على هذا العهد، سننفِّذه مرة أو مرتين وجراحنا لا تزال خضراء، وحينما تبدأ جروحنا وكذلك مشاعرنا في التيبُّس سنتلكَّأ في استمرار التجمع كلٌّ بعذر مختلف، والنتيجة بيت تعشِّش فيه العنكبوت والأرواح الضالة، وأشباح ذكريات امتدَّت لنصف قرن أو يزيد!

أتوقَّع اتصالك في أي وقت لتعزيني، ولكنني في قرارة نفسي لا أتمنَّاه أبدًا، لا تنفث في الرماد الساخن فقد يشتعل في وجهك، وأنا أخيرًا أتوهَّم أنني هدأت بعيدًا عنك وعن زوجي وعن صالح واسترحت لاختياري أن أنحِّيكم جميعًا عن كل ما يخصُّني في السراء والضراء على السواء.

هل تدري كيف مات أبي؟

أبي كان واقفًا يتوضَّأ ليصلي الضحى فوقع ميتًا، هل يمكنك أن تفسر لي كيف خرجت الروح في جزء من الثانية فاستحال الحي ميتًا قبل ارتداد الطرف!

خرجت روحه بلا عذاب ولا معاناة، لو واتتني الجرأة لالتقطت صورة لوجهه بعد أن هدأ جسده بعد فراق الروح، وكأنه بدر في ليلة التمام بثغر باسم ابتسامة هادئة في وداعة ذلك الوجه المستكين، ولكن للموت هيبة غامضة تمنعنا عن أشياء قد نراها في ظروف أخرى عادية، في غضون ساعات كان ذلك الوجه الباسم مكفَّنًا بالأبيض ومعطرًا برائحة معتَّقة أهدته إياها أختي الصغرى في رحلتها القصيرة منذ بضعة أشهر وكأنها في طقوس وداع مبكِّر، فقد باتت لياليها

القصيرة في حضنه، ربما للمرة الأولى منذ سنوات طفولتها البعيدة، وكأنها استنَّت طقسًا سرنا على هداه بعدها، فقد بتُّ كذلك في حضنه بعدها بأسابيع قلائل في إحدى نوبات مرضه، وكذلك فعلت أختي الكبرى بعدي بأيام، هل كانت كلٌّ منا تحتضنك حضن الوداع يا أبي؟

لكنني حزينة، فقد طلب مني أن أزوره قبيل يومين من وفاته، فقلت له إنني أخشى السفر في تلك الظروف التي يخيِّم فيها ذلك الفيروس اللعين على الأجواء، وقلت في نفسي إن هذا العزل الذي نطبِّقه لهو نوع من الوقاية له قبل أن يكون لنا، ومع ذلك فقد وعدته أننا سنلتقي عنده يوم الأحد، لكن القدر حاسمٌ وباتٌّ، فقد أبَى أن يتأخَّر ولو للحظة عن موعده، وأصر أن يكون موعدنا السبت!

القدر جرَّاح قلب ماهر ولكنه بلا قلب لأنه لو كان يملك واحدًا لتأخَّر عن كل التكليفات التي يأمره بها رب العزة، والموت لا يقبل الرجاءات، الموت لا يتفاهم يا صديقي!

انعدام الدموع في أعيني الجافة يزيد عليَّ أعبائي، ويصيبني بحمى زائفة وسعال جاف يسحب اللعاب من حلقي، أعلم أنني سأتعافى إن تركت نفسي لانفعالي الفطري وسمحت لأعيني بالبكاء، لكنني أخفق إن أنا حاولت، وكأن الدموع تجلَّطت في محاجري ولم تنَل فرصتها في الانسياب.

انقضى أسبوع كامل من المفترض أن تعود الحياة بعده عادية وإن لم تكن طبيعية، لكنها حولي لا طبيعية ولا حتى عادية، فكلُّ ما حولي كأنه لقطة متوقِّفة، حتى عزاءك الفاتر والعابر لي هو الآخر لقطة متوقِّفة، لكنَّ ظهورك فجر اليوم وبحثك غير الدؤوب عني هو أول لقطة متحرِّكة، وربما حية متشبثة بالحياة تلتقيني، كان عملي قد استغرقني حتى الساعات الأولى من صباح اليوم، فقد ظللت أعمل

إلى ما بعد الفجر بساعة كاملة، فنمتُ قبل الخامسة بدقائق، وحين استيقظت قبيل الظهر وجدت رسالة منك على هاتفي لا تتضمَّن سوى اسمي فقط، وأنا بداخلي أخشى اقترابك أكثر مما أتألَّم لبعدك!!

حين تعزيني فلا تقل لي: "لعلها آخر الأحزان"، فلو أنك حملت الأمر على معناه الحقيقي فهذا دعاء بأن أكون أنا من عليَّ الدور مباشرةً، فالحزن في الدنيا حتى نفارقها، فكيف تكون آخر الأحزان إن كانت لنا أشهر أو سنوات أخرى سنحياها؟ وهل عاش امرؤ عامًا كاملاً بلا أحزان، فالحزن رفيق طريق يمتد أحيانًا إلى سنوات، فكيف بهذا الآخر الذي يزعمونه؟!

لست بخيرٍ يا حسن، لست بخيرٍ يا صديقي، نحن نلفُّ في دوائر مفرغة، كلٌّ يتتبَّع آخر، والآخر يتتبَّع شخصًا ثالثًا، وهكذا بلا انتهاء، ولا أحد يدرك ما يبحث عنه أبدًا، ولو أنه أدركه فما هي إلا فترة قصيرة حتى يزهد فيما بين يديه منطلقًا في البحث عن آخر بعيد، وهكذا! فأنا أتتبع مؤيَّد وصالح يتتبعني وأخرى تتبعه، وقد أتتبعك أنت أحيانًا ومؤيَّد يتتبعني والدوائر تتقاطع أو تتوازى بلا انتهاء!

أستجدي أي مفردات حنين من زوجي المعتزِل بعيدًا في تلك المدينة فلا أجد شيئًا، لقد صار مجرَّفًا هو الآخر من الداخل، من شدة ما تعرَّض له من هموم وأحزان وأعباء نفسية وحياتية أكثر من أن تُحصى، وأنا في نهاية الأمر امرأة شرقية بامتياز تدور في فلك رجلها أيًّا كانت ظروفه، لقد صار قيدًا ثقيلاً على معصمي، سنوات في إثر سنوات ولا شيء يتغيَّر، يملؤني الإشفاق نحوه، لكنني أريد أن أتقدَّم ككل البشر، فليس بداخلي ما يحتمل الرجوع إلى الخلف، وهو كل ما يستطيع فعله في أفضل حالاته أن يجعلني في حالة من الثبات والانعدامية، إن لم يقهقرني خطوات وخطوات إلى الخلف وألف خلف!

هل حدَّثتك من قبل عن دورتي الشهرية التي انقطع دوامها منذ سنوات بفعل هرمون البروجستيرون الذي كنت أداوم على الحقن به بعد إنجابي ثلاثة أبناء خلال زواجي الأول، ثم منذ بدء زواجي الثاني، فجعلني لم أعد أرى دورةً منتظمة، ربما مرة كل ستة أشهر أو كل عام، ومنذ بضعة أشهر قرَّرت زيارة مركز طب الأسرة القريب من بيتي، فنصحتني الطبيبة أو الحكيمة المسؤولة في المركز أن أكفَّ عن استخدام ذلك الهرمون بعد أن سألتني عن سني، قائلةً لي إن هذا الهرمون غير صالح لمن بلغن الأربعين، ولا أدري لم ارتحت إلى كلامها بهذا الشكل...

ومنذ تلك الزيارة الوحيدة توقَّفت تمامًا عن حقن البروجستيرون، ولكن هذا لم يُرضِ زوجي المتوجِّس بطبعه أن أحمل وهو يوشك على الخمسين، فقرَّر أن تكون لقاءاتنا الحميمية جافة، فيفعل كل شيء بشكله الطبيعي إلا أن يروي ظمأ كهفي المتعطش لئلا يتسبَّب في كارثة من وجهة نظره، دون اهتمام أو ربما دون إدراك أن ماءه بما فيه من مواد لزجة وخلايا بروتينية يقوم بعمل عظيم، وأنه مرطب طبيعي لما بعد العلاقة!!

عرضت عليه أن نستخدم وسائل وقتية لمنع الحمل دون أن نتخلَّى عن إتمام الحالة، كتلك الكبسولات التي تؤخذ وقت العلاقة ولا سيما أن لقاءاتنا صارت متباعدة، فربما لا تتعدَّى مرة أسبوعيًّا، ولكنه كان قد صار فريسة للرعب الذي أورثته إياه أفكاره إثر تلك المعركة التي يخوضها مع رجلٍ يعاقر الشيطان، وزوجي هو الهدف الأساسي له، حسبما يرى، فهو يريد أن يستقطبه ليستقوي بسلطته ومحيط علاقاته.

...

الشيطان يا حسن، ليس فقط يكمن في التفاصيل، بل هو يكمن كذلك في جوارح السحرة والمشعوذين وبعض مدَّعي الصوفية!

والله (عز وجل) بريءٌ من هؤلاء، ليس حكمًا اعتباطيًّا، وإنما قلبي يحدثني، فماذا سيجني رجلٌ ساحر أو متبع طريقة متوهمًا أنها صوفية بفراق رجل عن امرأته؟!

لم أكن أصدِّق أن هذا هو السبب في ما وصلنا إليه أنا وزوجي، إلا حين رأيت البراهين بعينيَّ هاتين، نعم براهين أكثر من أن تُحصى!

منذ بضعة أيام وأنا أشعر بالجفاف الشديد والتحسُّس المفرط في مناطقي الحساسة، وفي صباح اليوم وكأن لحم تلك المنطقة قد تعرَّض للطهي، فإذا به متوِّرم وشديد الاحمرار، ولا أطيق أن ألمسه، هذا غير الألم الشديد الذي أشعر به، وعلى الفور ذهبت إلى الصيدلية وأحضرت بعض الأدوية المرطبة والمهدِّئة لهذا التهيُّج الظاهري، وبرغم تلك الحالة غير المبرَّرة نظرًا إلى غياب زوجي لأسبوع كامل تلك المرة، فإنني أشعر بالاحتياج الشديد، وكأنني لم أمارس الحب بشكل حقيقي منذ أشهر، وكأنني لم أتأوَّه من فرط اللذة منذ زمنٍ بعيد، وكأنني صرت امرأة وحيدة مرة أخرى، وذلك القابع في بلدةٍ بعيدة مغيَّبٌ تمامًا ولا يشعر بي أدنى شعور!

مسكينٌ هو الإنسان في كل حالاته، فليس لأحدٍ أن يحيا على هواه طوال الوقت، بل لا بد من شيءٍ يكبِّلنا أو شخص، لا بد من أفكار أو هواجس أو مبادئ أو ظنون، لا بد من قيدٍ يدمي معاصمنا وأحيانًا يدمي قلوبنا الجرحى قبلاً.

كم يملؤني الحزن يا حسن، ورمضان على الأبواب، وكان أول أيامه حتى العام الفائت يعني أن نتجمَّع أنا وإخوتي الرجال بأزواجهم وأبنائهم على الإفطار، ولكن العقد انفرطت حباته بموت أبي، فأخي

الأكبر يتعلَّل بأن لديه أعمالاً ضرورية يتوجَّب أن ينجزها في ذلك اليوم، ذلك اليوم بالتحديد، على الرغم من أن أبي لو كان حيًّا كان أخي هذا سيكون أول الموجودين على مائدة رمضان!

إنها مفرمة الحياة، سأفطر للمرة الأولى أنا وأبنائي فقط!!

تعلم ما تعنيه الوحدة، والقِلة بعد الكثرة، تعلم انعدام العزوة والسند، أجل، أنا واثقة أنك تعلم، فكم من غربةٍ عشتَها لأن عملك يحتِّم عليك أن تبقى مفردًا من الأهل في تلك المدينة الساحلية البعيدة، فكم من عيدٍ مرَّ وأنت متشوِّقٌ إلى أهلك، وكم من سحورٍ أول كان أبناؤك وأمك يتمنَّون لو أنك تشاركهم إياه!

الغربة قدرٌ على المرء في كثيرٍ من مراحل حياته، والحزن غولٌ، ألم أقل لك إنني لم أبكِ بعد؟! كان عقلي الباطن يرفض أن يصدِّق أن أبي قد غاب نهائيًّا، الآن والوحشة تأكلني أشعر أنني لن أستطيع الارتماء في حضنه أبدًا بعد الآن، ولا حضن يعدِل حضن الأب، ولو كان لأحنِّ رجلٍ في العالم!

آه، يا وجعي الممتد، ويا لتذكارٍ أسود جديد ينضاف إلى سوابقه المحتلة هذا القلب!

وكأن السر هناك في (يس، والقرآن الحكيم)! وكأن مفاتح دمعي كلها في تلك السورة؛ تلك السورة التي آنست وحشتي وأنقذتني من الوحدة في كل مرةٍ كنت أُختبَر فيها اختبارًا صعبًا، الوحدة ليست أن تُفرَد بين جدرانٍ وقتية، الوحدة الألعن أن تشعر أن أباك ليس بانتظارك هناك في ذلك البيت الذي نشأت فيه، وليس سوى شبكات لا نهائية لعناكب استوطنت وحدها الدار!

الوحدة أن يأكلك اليتم بلا أمٍّ ولا أب، وكأنك بين الذئاب ظبيًا وحيدًا، الكلُّ يتأهَّب لافتراسك!

المدينة تلك الأيام كئيبة هي الأخرى، وهناك بعض الأحياء وكأن أهلها هجروها حقًّا، بالصدفة كنت في جزيرة الزمالك، فإذا بالشوارع قد صارت طريقًا للسيارات فقط، لم ألتقِ لمسافة ربع ساعة سيرًا على الأقدام شخصًا عابرًا، والأرصفة يعلوها التراب بلا أية آثار لأقدام بشر في المنطقة بأكملها حتى أنني تخيَّلت أن البيوت قد أُخليَت من ساكنيها...

ولكنني حين وصلت إلى مكتب البريد القابع في شارع أم كلثوم وجدت بشرًا وأرقامًا للعملاء وإن لم أجد زحامًا كذلك الذي رأيته أمس بميدان الجيزة أو اليوم بميدان الدقي، وكأن المناطق المزدحمة صارت أكثر ازدحامًا والمناطق الهادئة صارت أهدأ إلى درجة مفزعة بعد هذا الوباء الذي لا تظهر في الأفق أية بوادر لانحساره.

أدمنت البوح في وجودك، وكأنني أبحث عن أي شيء أحكيه فقط ليجعلني أشعر أنك بقربي، وتسمعني وتتفاعل معي، حتى إن ندائي باسمك وكأنه حضن عميق أستمتع به حين أنطقه حرفًا حرفًا وكأنني أتلذَّذ باحتضانك، وإن كان حضنًا معنويًّا بحتًا!

من أنت في حياتي يا حسن؟ يهمُّك أن تعرف؟ أنا يهمني أن أخبرك، وأصارح نفسي بأنك صرت أقرب إلى روحي من أي آخر سواك في هذا العالم، لقد صرت ظلِّي، والمعادل الموضوعي لحياتي العادية الرتيبة باستثناء تلك اللحظات التي أكتب أو أرسل فيها إليك ما كتبت، وتلك التي ترد عليَّ فيها بصوتك وكأنه ضمَّة أخرى تضمُّني إياها كصديق مخلص، تمامًا مثلما يردِّد الفراغ صدى الصوت!

الذكريات ثقل زائد على قلوبنا، نكتمها فتتفنَّن في الظهور ربما في شكل أحلام ليلية خلال النوم، أو قد تحتل أحلام اليقظة فيما بين الصحو والنوم.

والألم، ما أقسى الألم! تذكِّرني نوبات القولون العصبي بطلق الولادة، فليس أقسى ولا أشد ألمًا على المرأة من آلام المخاض التي تكاد تزهق الروح، لا أنسى أبدًا زلزلتها لجسدي كل ساعتين ثم كل ساعة، ثم كل خمس دقائق، إلى أن أوشكت أفقد وعيي وأستسلم لفكرة الذهاب إلى المستشفى، والغريب أنني وضعت حملي بعملية جراحية (ولادة قيصرية)...

قال لي الطبيب وهو يطمئن على جنيني ألم يقل لك أي طبيب أثناء الحمل إن ولادتك ستكون قيصرية لأن حوضك ضيق؟!

تعجَّبت من تلك العبارة التي قالها لأنني في أول الشهر التاسع زرت طبيبًا طمأنني أن كل شيء على ما يرام، وكلما أتذكر أنني كدت أفقد جنيني بسبب التطمين الخاطئ من الطبيب الأول أفقد ثقتي في هؤلاء الذين لا يراعون ضمائرهم أيًّا كانت مناصبهم الوظيفية.

ولا يوشك أن يوازي ألم الوضع سوى ألم الأسنان حين تصل إلى حالة (Baer Bone) كما وصفها لي طبيب الأسنان الراحل بأنها (عظم عريان)، وهي في ترتيب الإحساس بالألم لا يسبقها سوى الحروق وآلام الطلق!

ظلَّ لأربع سنواتٍ يحاول أن يخفِّف آلام أسناني، لكنها كانت جميعًا محاولات فاشلة، فقد فقدت ضروسي واحدًا إثر الآخر في سيناريو متكرِّر يبدأ علاج العصب والحفر بداخل الضرس لإماتة العصب ثم حشو البلاتين ثم محاولة صنع طربوش يحفظ الضرس الذي صار هشًّا بعد معاناة طويلة لإنقاذه فيكون عطب الضرس أسرع من شفائه إثر الألم الشديد الذي تحاملت على نفسي واحتملته لسنوات قبل أن أقرِّر الذهاب إلى الطبيب، فتنتهي قصته في حادث مروعٍ يتمثَّل في تحطُّمه جزءًا إثر الآخر بسبب ضغطة بسيطة على شيء من الطعام

فيضطر الطبيب في النهاية إلى استئصال جذور الضرس الضاربة بقوة في اللثة! ولاقى خمسة من الضروس في أربعة أعوام بالتتابع نفس هذا المصير، وبعيد كل تلك السنوات فسَّر لي طبيب الغدد الصمَّاء الأمر بأن الغدة الدرقية حين تُستأصل تُستأصل معها الغدتان جار الدرقيتين، وهذا هو السبب في نقص الكالسيوم والهشاشة الشديدة التي أصابت أسناني!

يداعبني خيال هذا الطبيب الآن، طبيب الأسنان الذي أحبَّني وثابر حتى أحببته، صاحب الحضن البريء الوحيد في حياتي (للمرة الأولى فقط!).

الحضن هو بطل الارتباط يا صديقي، الحضن المنزَّه عن الجسد هو ما ظلَّ في قعر ذاكرتي ستة عشر عامًا، نسيت كل تفاصيل تلك القصة باستثناء ذلك الحضن، ودمعات الرجل المهزوم في لحظة مصارحة أخيرة أعقبها فراقٌ ممتد "لم أنجح في أن أكون رجلاً أمامك!".

وقد يكون طُعمًا لصياد محترف امتلك كل مفاتيح شخصيتي فنجح بامتياز في استخدامه، واستطاع استقطابي من خلاله. فالحضن هو بطل الارتباط يا صديقي، وهو العالِم الخبير بمثل ذلك! ذلك الرجل الذي غنَّى لي في ميدان التحرير (علَّمني حبك أن أحزن)، بصوتٍ لطالما زعمت أنه أصفى وأدفأ من صوت كاظم! إنه الحب، يجمِّل كل شيءٍ في حياتنا لأننا نرى عبر عدسته المفلتِرة، وما كل تلك الفلاتر التي صارت تقنية مستخدمة في الهواتف الذكية سوى تنظير لعدسة الحب!

أنا لا أحتمل الذكريات، لشدَّ ألم كُليتيَّ حين أضبطني متلبِّسة بالتنقيب بين ذكرياتٍ قديمة في ركن جهاز الكمبيوتر أو كشاكيل اليوميات القديمة بخط يدي قبل أن أستبدل بها ملفات الوورد، ما كل هذا الزخم من الأحداث والأوجاع والتفاصيل!

إنني مثلك، وحيدةً أبدأ الشهر الكريم، الشهر الذي لا ينبغي أن يشعر أيُّنا فيه بالوحدة، أوحشني أبي، أوحشني حضنه في السلام رغم قصر مدته الشديد، أوحشني سؤاله: ''عايزة إيه نجهزهولك؟''، أوحشتني ذبذبات السعادة في نبرات صوته وهو يخبرني ''جهزت لك جوزين حمام، ونتايتين بط، جبت لك خمسة كيلو زبدة...''

أوحشني احتفاؤه بي وبإخوتي، ''جبت حتة جدي صغير كدة جه تسعة كيلو، ياللا بأى تعالي اعملي لنا الغدا''...

أوحشني إطراؤه على صنع يدي من الطعام، ''دي حاجة حلوة أوي، متشكرين يا ستي''...

أوحشتني حكاياته لي عن بلدتنا، عماتي، وأبناء العمومة والخؤولة، ومن تزوَّج، ومن أنجبت، ومن غضبت زوجته من أبناء عمي وتلك الجهود الحثيثة التي بذلَها لاستعادة الحياة لتلك الأسرة التي كانت مهدَّدة بالهدم والخراب.

أوحشني صوته في الليالي التي كنت أبيتها معه حين كان يتوضَّأ ثم يقرأ آياتٍ من القرآن حتى قبيل الفجر، فأسمع صوت الباب ينفتح وينغلق لأنه ذهب إلى المسجد مبكرًا ليؤذن للصلاة، كثيرًا ما كانت تصلني (الله أكبر، الله أكبر) بصوته الذي لا أخطئه، فتعتريني مشاعر الأمان وتسكنني الطمأنينة والسعادة فأستعد بعدها للصلاة.

أوحشني عتابه الحاني هاتفيًّا حين كنت أتأخَّر ليومين عن الاتصال به: ''إيه يا ستي نسيتينا خالص كدة؟!''

أُشهِد الله أنه أعزُّ الناس وأنني لم أنسَه يومًا، لم يغِب عن بالي يومًا منذ رحل بلا وداع، وكلما مرَّ يومٌ آخر زاد نقر الوحشة في قلبي، حتى إنني أبحث عن صوره في ملفات الصور على جهاز الكمبيوتر فأبثها لوعتي واشتياقي، وأناشد الذين لم تفُتْهُم الفرصة بعد، أن يحتضنوا

آباءهم، أن يقولوا لهم إنهم يحبونهم، ويخبرونهم أنهم أساس الدنيا في حياتهم، قبل أن يأتي يوم يتمنَّى كل منهم أن يعترف في حضرة أبيه بالحب فلا يجد سوى ذكرى، وألبوم من الصور!

رمضان يا صديقي مكمن الذكريات، التجمُّعات العائلية، صنوف الطعام التي لا تُحصى، والحلويات التي كان أهم ما يميِّز عائلتنا منها (فطير الصينية) والكنافة والقطائف الحلوة التي كانت أمي وزوجة أبي تختلفان في كل مرة تعدَّانها معًا هل تغلَق على الجانب النيئ أم المحمرِّ قليلاً إثر صدمتها بسطح ساخن تصبُّ عليه؟!

تذكَّرت في أول أيامي الرمضانية تلك المحاورة التي لم تصلا فيها أبدًا إلى حلٍّ مُرضٍ لكلتيهما، حتى إنني قد أنصفت كلًّا منهما في مجموعة قطائف، وإن كان استسهالي جعلني أنحاز إلى طريقة زوجة أبي، رغم عشقي طريقة أمي، ودعني أسرّ إليك أن أسناني لم تعد تسعفني لأكلها على طريقة أمي (المقرمشة).

ليس معنى كوني امرأةً أعدُّ بعض أنواع الطعام للإفطار أنني لا أشعر بالوحدة، فأنا مثلك أتقلَّب طوال فترة نومي على فراشٍ متسعٍ بارد، حتى في ليالي الصيف التي لا يضمُّني فيها حضنٌ يبدِّد برودتها!

تنعتني بالصبر، الصبر الذي علمتني إياه السنوات والمواقف يا صديق!

هل تعلم فيم كنت أفكر لساعات؟ كنت أفكِّر أنني لم أمارس الحب بشكل حقيقي لبضعة أشهر، أرهقت ذاكرتي من إحصاء الزمن فتجاهلت المدة، لكنَّ موجاتٍ عارمة من الاحتياج تلطم جسدي بالتتابع، وكأنني أبحث عن شبحٍ لرجلٍ ميت، أو ذكرى لماضٍ تولَّى منذ زمان بعيد!

...

ما أقسى الاحتياج وأنا بين فكَّي رحى؛ فكثيرون من ينتظرون أن أسقط في الفخ وأعود امرأةً وحيدة، فقد يحالفهم الحظ في لحظة احتياج عارم فأستسلم!

نحن في متاهةٍ يا صديقي، أو أعني أنا نفسي، ولا أعلم يقينًا إن كنت مثلي أو أنك مثلما تمرِّر لي في بعض المحادثات تقنِّن احتياجك قُبيل مسافةٍ من الذروة مع أخرى تتشهَّاها لمرةٍ أو مرتين!

فماذا تكون الخيانة يا صديق؟

هل هي أن أستبيح لجسدي مضاجعة رجل آخر سوى زوجي؟ هذه حقًّا! ما أتفه هذا الفعل أن يُعدَّ كذلك!! فالخيانة يا رجل هي خيانة الروح، هي أن يضمَّني هو وكل جوارحي مغيَّبة عنه تبحث عن آخر تحتويني روحه، وكأن السماء تعاقبني لرفضي مضاجعةً باردةً فحرمتني منها تمامًا، ربما إلى الأبد!

لم أكن صادقةً في هذياني، وأعيد تعديل اعترافي، فأنا أحبه مهما ادَّعيت غير ذلك، أحبه هو، وإن كرهت الضعف والعجز المكبِّلين عقله وجسده معًا، وكرهت استسلامه وضعفه، ومن ثمَّ غيابه في أكثر وقتٍ أنا بحاجة فيه إلى حضوره القوي.

أنا بحاجة إلى أن يتشمَّمني ككلبٍ يعشق جسد صاحبته، فيلعق كل خليةٍ في جلدها مدللاً إياها دونما انتهاء، وحين يستشعر ارتوائي حبًّا يحملني منطلقًا بي إلى ذلك العالم الذي أهواه كطفلةٍ حملها أبوها إلى (هايد بارك) لتمارس كل صنوف السباحة والتزلُّج واللعب مع طيور البجع التي لكم تشوَّقت إليها، فقضت يومًا من أجمل ما عاشت، حافظةً إياه على رأس قائمة ذكرياتها السعيدة في عمرها كله، ثم معانقًا دهشتي في شغفٍ يمتدُّ بامتداد الحالة، ثم مريحًا رأسي على صدره ويداه تحيطان بي كمهدٍ أنام في هدأته حتى مطلع الفجر!

أين غيَّبته المواجع؟! لمَ زهَّدَته كل شيء حتى أنا؟! لست أدري.

الكلام باهت يا صديق، فما عاد من شيءٍ ليكتب سوى اليومي والعادي، وهل يثير اليومي والعادي شهية الإنصات أو حتى الاستماع من باب المجاملة؟ أرى الناس يستثقلون المجاملات وكأنهم أقرب إلى البداوة وطباع الهمج منهم إلى التديُّن أو إلى التخلُّق بأخلاق الرسل أو حتى المثل العليا!

هل أخبرتك من قبل أن عشقي الأول هو سقراط؟ ذلك الرجل الذي عالجه الصبر فصار حكيمًا وكان باسمًا في رضا وهو يساق إلى المقصلة، لشد ما أهانته امرأته ولم تقدِّر له قدره، هكذا الدنيا رجل حكيم وامرأة عمياء القلب والبصيرة، أو امرأة صبور ورجل بهيم، فيا لحكمة مخفية في شؤون المخلوقات!

الروح يا حسن، هيام الروح حتى تلتقي من يؤنسها رحلة شاقة، ربما صار أشق ما يواجهه الفرد في حياته بأكملها، تراك جرَّبت أن تفتقد أنثى مثلما أفتقد رجلي في لياليَّ الأرِقة الضاجَّة باحتياجي العارم دون أية وجهة للإشباع سوى الصمت، والاحتماء بذكرى الموت من البحث عن شريك متخيَّل يشاركني ذروة وهميَّة!

ومع ذلك أفشل بإصرار، ويتسلَّل طيف روح لا أعلمها إلى محيطي فيستوي خلقًا مثاليًّا للرجل الذي أنتظره بين أحلامي ويقظتي فيراقصني حتى أرتفع إلى أقصى قمة ثم أنتفض معلنةً انتشائي بوصول استثنائي وعينان مشتعلتان تحتضانني كلي في سعادة!

***

لن أدعها يا هذا، لا لك ولا لسواك، وحتى لو هي أعلنت رفضي، أعلم أنها تحبني، لا فقط تحبني، بل تعشقني، وستظل تعشق وجودي ودورانها حولي وحدي، ولن أصدق أنها غادرت كعبتي واختارت أن تغرِّد حواليَّ آخر سواء كان أنت أو من كان سببًا في وجودك!

أكاد أجزم أنها تدمنني أنا وفقط، إنها لا تستطيع أن تتذوَّق الأمان سوى بين ذراعيَّ، ولا تتلذَّذ بطعم الضحكة إلا حين تسمعها أذناي، إنها لي أنا.

ست سنوات تنتظر قدومي أسبوعيًّا وتتحرَّى رضاي، وتتفقَّد ما يسعدني لتؤديه باحتراف ورضا وتقدير، ولو تغيَّبت عنها ظلَّت بلا نومٍ ولا طعامٍ حتى أتعطَّف وأوافيها.

الآن تريد مني أن أصدق أنها برئت من عشقي! تريدني أن أصدق أنها أدارت بوصلتها بعيدًا عن قبلتي باتجاه آخر تحدثه أو تتحدث عنه؟! ومن يكون؟ وماذا عساه أن يقدم لها دوني؟ أية قوة خارقة تلك التي يمتلكها ليحوِّل قلبها تمامًا عني؟

إنها لم تتخوَّف من الاعتراف بوجود آخر، لم تمحُ دلائل إدانتها به، لم تخشَ عثوري على حديثها معك بين سطورها ولا بين عينيها، لكنني لن أدعها تفلت من سطوتي أبدًا، ولن أسمح لها بالفرار بعيدًا عن مداراتي، ولن أدعك تساعدها للهروب من عالمي بتلك السهولة، لن أدعها تفلت من بين يديَّ ولو اضطررت إلى عزلها عن العالم!

نعم عزلها حتى أفيق وأعود من معركتي الفاصلة، نعم، معركتي استثنائية وغريبة، كبَّلتني قيودها نحو ثلاثة عشر عامًا جاهلاً ماهيتها وأسلحتها، جاهلاً فيها حتى عدوِّي الحقيقي، وأحسبه أوفى الأصدقاء، هل تذكر الرفيقين اللذين عاشا معًا لنصف قرنٍ أو يزيد، وفي لحظة

شفافية غير محسوبة قال أحدهما للآخر: ''أترى ذلك النجم البعيد؟ لقد ربطتك على هذا النجم منذ ثلاثين عامًا!''، فلم يكن من صديقه المربوط حقًّا سوى أن أخرج مسدسه مفرغًا كل ما به من طلقات في قلبه! الموقف نفسه بسيناريو آخر حدث معي، فقد عشت سنِّي حياتي مع أخٍ لم تلده أمي، قرَّبته إليَّ حتى قبل إخوتي، رغم حبِّهم الشديد لي، كان شطري، وشريكي في الحياة والعمل مرات عديدة كان مصيرها جميعًا إلى الفشل!

وها أنذا أحمل فوق رأسي دينًا ثقيلًا له، هو من ورَّطني فيه، ولكنني آليت على نفسي أن أبقى شريفًا إلى النهاية، وبعد أن خاصمت زوجتي وهجرتها مدفوعًا بقوى خفية، ومسمَّمًا بما أسمعني هو ومولاه الغامض بشأنها، اكتشفت بعد فوات الأوان أنهما سبب شقائي وحرماني، ليس منها فقط، بل ومن كل توفيق في حياتي، فبمجرد دخول صديقي في مشروعي الذي تعهَّدته فكرة في رأسي –وساندتني هديَّة ودعمتني حتى حوَّلته إلى واقع– انهار كل شيء بالتتابع، استحال مشروعي من الربح إلى الخسارة، وتكبَّدت دينًا ثقيلًا، وأُبعِدتُ عن زوجتي بفعل شيطان رجيم!

***

الوجع يا حسن!!

ما أقسى الوجع، لا سيَّما وجع الروح، ربما ليس من حقي أن أغار عليك، أو أن أظنك لي وحدي ولو يومًا متخيَّلًا، لكنني لم أتوقَّع أن تكون باحثًا عن حضني ليلة، ثم في نفس الموعد في ليلة تالية تبحث عن أخرى قرَّرتَ أن تجعلها سرًّا وحاجزًا بيني وبينك، وإن لم أعترف يومًا أنني أحبك، وإن تخيَّلتك شريكي في المرات التي مارست فيها الحب الفانتازي في ليالٍ مُرَّة عجفاء!

المعضلة يا صديقي أننا تواعدنا على الشفافية، ومارسناها لبعض الوقت لكنك تراجعت سريعًا عندما اكتشفت أنك تجدُّ في اللهث خلف أي أنثى تقرأ في ملامحها مبادرةً أو شغفًا!

ما تشعر به نحوي ليس حبًّا، ولا ذلك الذي تدَّعيه لزوجتك، أنت لا تحب سوى نفسك، وفقط، لأنك لو أحببتها أو أحببتني لأخلصت لإحدانا، لكنك ترى كل أنثى نهبًا مستباحًا لك أنَّى ومتى شئت!

في نفس الوقت الذي أصارحك فيه بأنني ما زلت أحب زوجي وأرفض أن أسمع منك غزلًا صريحًا ولا رغبة مباشرة في أن تصير مكانه في حياتي، وأتألَّم لأنني أخونه في سريرتي وأعد هذا دافعًا أن أطلب منه الطلاق، أراك وقد استحلت حيوانًا يقفز فوق أية بهيمة يستطيع الوصول إليها ويعتليها حتى يحصل على شهوته، وبمجرد الانتهاء يغادرها كأي ذكر فظ غليظ الروح.

إنك لم تكلِّف نفسك عناء السؤال عني، ولم تهتم بانسحابي لأنك لن تفكر أني تأذَّيت، عليَّ أن أمرن نفسي على غيابك إلى الأبد، فلست ذلك الشخص الذي آمنته على ذاتي وحياتي، لست ذلك الصديق الذي أتوسَّم فيه ستري إن عاركتني الأيام، ولا الصاحب الذي أظن أنه

سيحميني من نفسي إن ضعفت يومًا في حضرته، فأنت أخطر عليَّ من الغرباء، ولن تعود مثلما ظننتك يومًا ما!

آه لو فكرت بأحوالي لشعرت كم أتألَّم في صمت، وإن كنت آخر من أريد أن يتألم لأجلي أو حتى يقرأ ضعفي، فأصعب من البعد الحرمان في القرب، هل جرَّبت أن تنام في حضن زوجتك فتشتعل رغبتكما أقصى اشتعال لكن رجولتك لا تتحرك وكأنها معطلة بفعل فاعل! هل جربت أن تستخدم كل أنواع المنشِّطات المشهود لها بالكفاءة فتزيد ارتخاءك في هذه الساعة بالتحديد كلما لمست امرأتك!

صارت تشكُّ أنها حالة نفسية أو إرهاق عصبي إثر ما تعرَّضت له من خسائر وأزمات في العمل، وهذا يثقلني أكثر، فلماذا أكون طبيعيًّا طول الوقت في هذا الجانب إلا حين أقترب منها! لا أستطيع إقناعها بشيء لا تراه، ولا أراه أنا كذلك، ولكن شواهده تنغِّص عليَّ كل حياتي، فحين أكون في بيتي مع أختي وبناتي أشعر أن رأسي ككرة من الزجاج المشروخ، يتسرَّب كل السائل منها ببطء فأستحيل كمن لعبت برأسه الخمر فصار حاضرًا وغائبًا في آن، وحين يوجِّه أيٌّ من الحاضرين دفَّة الحديث باتجاهي ألقي كلمة نصف واعية وكأنني أبعد عني تهمة الكلام، لكنني حين أتوجَّه إلى الفراش تتحرَّك مشاعري ورغائبي وغرائزي بشكل طبيعي، حتى إنني أنام وأستيقظ وجوارحي تستيقظ مثلي، فكيف بي حين أكون معها أستحيل إلى رجل عنِّين لا يتحرَّك له ساكن، وهل أجرؤ حينها أن أطلب منها الصبر؟! علام ستصبر؟ وحتام في تلك الظروف القاسية اللعينة؟ وكيف سأبدو في نظرها؟ وهل أسامحها إن تركت لخيالها العنان أن يشتعل برغبة ليس لي قدرة على تلبيتها ولا جرأة على الاعتراف بأزمتي الحقيقية معها؟

***

سوف ننجو يا حسن، قلبي يحدثني أننا سوف ننجو، من وباء الكورونا، من أوجاعنا الخفيَّة، المهم أننا سننجو، وإن كان الواقع أقسى من كل التخيلات الأدبية والوساوس القهرية التي كان يتعرَّض لها بعض الكُتَّاب في القرن العشرين لينتج كل منهم رواية مختلفة، فرواية (العمى) التي صدرت عام 1995 تخيَّل فيها ساراماجو أن الجميع لا يرون إلا بياضًا لم تعد فانتازيا، إننا جميعًا استحلنا عميانًا لا نرى سوى شبح فيروس مجهول ينتقي آلافًا كل يوم فيقتل بعضهم ويصارع البعض في معارك شرسة تنتهي خلال أسبوع أو اثنين تاركًا الأحياء من ضحاياه كهياكل عظمية خرجت لتوِّها من القبر بعد تصفية كل ما عليها من لحم.

الوباء في كل مكان، لم يعد حكايات نسمعها أو نقرؤها على الفيس بوك والمواقع الإخبارية، صار المصابون معارفنا وأصدقاءنا، أستاذي في الجامعة، محفِّظ القرآن في بلدتي، وكذلك حبيبي الأول وزميلي في المدرسة الإعدادية؛ انتقلنا معًا من الإعدادي إلى الثانوي، وفي المرحلة الثانوية كنا معًا في نفس الفصل، أذكر حصص اللغة الإنجليزية حين كان يطلب مني المدرس أن أقرأ القصص بصوتي وتعليق (طاهر) عليها بعد سنوات حين التقينا بالصدفة في الجامعة أن نبراتي كانت تنقله إلى أجواء أخرى بعيدة كل البعد عن حدود الفصل الذي نجلس فيه، أجواء تشعره وكأنني معه هو فقط، وأنني أقرأ له وحده، وهو يحيا مع صوتي كل كلمة أنطق بها وكأنها حضن طويل يضمنا معًا.

كان هو قد التحق بكلية التجارة وأنا قد التحقت بكلية الآداب بجامعة القاهرة العريقة، وكانت الصدفة بدايةً لعدد من اللقاءات استمر عامنا الأول كله، فكنا نأكل السندوتشات عند مطعم (صبري)

أمام كليَّته رفقة شلَّته الجديدة في الجامعة، ولكنني لم أجد نفسي بينهم، وشعرت أن شغفي القديم قد انتهى واستعضت عن المجموعة بالكامل بما فيهم طاهر، حبيبي الذي كان، بأصدقاء من كليَّتي تجمعنا اهتمامات مشتركة ونحضر معًا لقاءات (جماعة الشعر) و(جماعة الإلقاء) بالكلية، لكن الأيام وضعت كلًّا منا في طريق الآخر غير مرة، فأما هو فقد تزوج بمجرد تخرجه، وأما أنا فقد تأخَّرت لعامين في التخرُّج ورحت أبحث عن عمل يوافق هواياتي وميولي، ورغم عملي بالتدريس لأربع سنوات فقد استطعت بمساعدة بعض أصدقائي الالتحاق بعمل حكومي في الصحافة، وإن لم يساعدني عملي في الوصول إلى أيٍّ من طموحاتي فيكفي أنه فتح لي أبوابًا للتحقُّق، فلطالما عشقت ذلك العمل الذي أقوم به ولم أعتبره يومًا مجرد مصدر دخل، وهذا سر ارتياحي النفسي فيما يخصُّ العمل.

التقينا وافترقنا مرات، وأخيرًا صار كل ما يعرفه أحدنا عن الآخر نتفًا من أخبارٍ لدى أصدقاء مشتركين، عرفت بمرضه عبر جروب القرية في منشور استغاثة لأخيه الأصغر يناشد المسؤولين لمساعدة أخيه المريض جدًّا ولا مكان في أيٍّ من مستشفيات العزل، لكم صار الواقع أسوأ مما كنا نظن!

***

السجن بداخلي يا حسن.. هل من كثرة ما انشغلت بالسجون والتعامل مع المحتجزين والمتهمين وأرباب السوابق! هل لأنني أتخيل نفسي مكان ذلك الذي قتل امرأته لأنها اتهمته بالعجز؟! رغم عدم تعاطفي معه ولا اقتناعي بأن ذلك ما سوَّغ له قتلها، فإنني أغرق في تلك الفكرة أحيانًا، تلك امرأتي يا رفيق.. تعيِّرني بالزهد فيها في نفس الوقت الذي تتبَّع خطواتي كظلِّي لتتأكَّد أنني لا أخونها. الغريب أنني من كثرة إلحاحها على ذلك بدأت أتخيل أنها تتمناه.. نعم.. تتمنى أن أخونها في مقابل أن أكون محتفظًا ما زلت برجولتي رجولتي التي بدأت أنا نفسي أشك فيها.. لماذا أتكبر على الدموع؟ حتى وأنا وحدي؟ ببساطة لأنني لم أكن أبدًا وحدي، ففي المديرية كاميرات مراقبة في كل مكان، حتى في دورات المياه، في المكاتب.. وفي البيت الرقابة أشد، حتى لو لم تكن هي بداخله، وأبنائي بمدارسهم أو بدروسهم، الرقابة هنا يا حسن.. في عقلي.. كيف أسامح نفسي إن بكيت كالنساء؟!

لست ضعيفًا ولن أسامح نفسي إن تكشَّف ضعفي حتى أمام ذاتي، لا أطيق أن أتعامل مع نفسي كشخص ضعيف، ولن أواجهني بذلك حتى لو اكتشفت مائة مرة أن تلك هي الحقيقة!

***

المشمش، أقصر الفاكهة عمرًا وإن كان من أشهاها طعمًا، سواء كثمرات طازجة أو بعد صنعه قمر الدين والاستعانة به كمشروب أساسي في إفطار رمضان.

من عاداتي أن أنتقي الفاكهة بيدي، مهما كلفني ذلك فوق ثمنها الذي تباع به لو أن البائع هو من ينتقيها لي، وقد اخترت أحد المحال قريبًا من بيتي يبيع الفواكه بما يقرب من ضعف ثمنها، وأشتري منه بارتياح ورضا شديدين لأنني أنتقي كل الثمار بيدي، حتى المشمش والفراولة، وجميع أنواع الفاكهة.

طلب أبنائي أنواع الفواكه التي يفضلونها، ومن ضمنها المشمش، وعلى الرغم من أنني شعرت أنه ليس النوع الأفضل فقد انتقيت نحو كيلوجرام منه، إضافةً إلى العنب البناتي والبرقوق الأحمر.

أكلنا من كل الفواكه الطازجة في اليوم الأول، واستمتعنا بطعومها جميعًا، وفي اليوم الثاني كنت فريسة لنوبة قولون عصبي حادة تابعة لنوبة شديدة بدأت قبل أسبوع وتناولت عددًا من مهدئات القولون والجهاز الهضمي بعامة، ورحت أحتضن الفراش ضاغطة على نصف بطني الأيسر في محاولة لمحاصرة الوجع، الوجع يا صديقي هو ذلك الصوت الذي يصدره جسدك اعتراضًا على قسوتك معه، ربما!

ونمت معظم النهار بلا طعام، وحين استيقظت شعرت بالدوار فجلست في مكاني، واستشعرت ابنتي الكبرى أنني لم أكن على ما يرام، فسألتني: مالك يا ماما؟

فأخبرتها أنني أشعر بالدوار والجوع، ففوجئت بها تقول لي: ''طب ثواني يا ماما''. غابت لما يقرب من دقيقتين وعادت تحمل طبقًا من الفواكه، استقبلتها بترحيب شديد واحتضنتها وأنا جالسة، أكلت

بعض ثمار العنب والبرقوق وثمرة مشمش، وانتظرت لبعض الوقت لأنها باردة جدًّا، فقلت أدعها لتهدأ برودتها قليلًا ثم أتناول المزيد، بعد دقائق كان أبنائي خلالها يمارسون الرقص على أنغام الموسيقى وأنا أجلس منهمكة على جهاز الكمبيوتر أحاول مواصلة العمل بعد أن هدأ كلٌّ من الدوار والجوع.

تناولت طفلتي الصغرى ثمرة مشمش وفتحتها لتخلِّصها من البذرة فإذا بها تطلق صرختي استغاثة تخلعان قلبي فزعًا، وارتمت في حضني ملقية بثمرة المشمش على المكتب، وهي تتصبَّب عرقًا وتنتفض صارخة: دود، دود كتير أوي.

احتضنتها في محاولة لتهدئة توتُّرها وانفعالها، وأنا أحاول ضبط أنفاسي أنا أيضًا، فرغم جرأتي الشديدة واستعدادي لمحاربة كل أنواع الحشرات وحيوانات المنازل بما فيها الأبراص والصراصير والفئران، فإن كائنًا وحيدًا هو ما يقشعرُّ بدني من رؤيته ولا أحبِّذ أبدًا خوض معركة هو طرفها الآخر، الدود! نعم ذلك الكائن الدقيق الذي لا يُرى أحيانًا سوى بالتدقيق وإطالة النظر، وقد لا تمكن رؤيته إلا حين يكون عددًا كبيرًا بداخل الثمرة الواحدة.

أمسكت ثمرة المشمش التي ألقتها الصغيرة على المكتب وألقيت بها في كيس المهملات دون أن أجرؤ على فتحها ثانيةً أو النظر فيها، في محاولة للتخلُّص من قلقي الذاتي بالتزامن مع طمأنتها هي أيضًا، وفي محاولة الفتاتين لتخلُّصهما من الآثار السلبية لما رأته قالت كبراهما لي بخوف وصوت مرتعش: أنا مش هاكل مشمش تاني.

أعادتني كلماتها إلى نفسي حين كنت في مثل سنها، وكنت أعشق الجوافة، وفي إحدى المرات قضمت من ثمرة جوافة قضمة فإذا بي أرى بداخلها جيشًا من الدود الأبيض الدقيق جدًّا، فبصقت القطعة

التي قضمتها وعاهدت نفسي أنني لن أعود لأكل الجوافة أبدًا، وظللت لأكثر من عشرين سنة لا آكل الجوافة، إلى أن زرعت أختي شجرة جوافة في بيتها، وأقنعتني أنها ليست كتلك الأنواع مجهولة المصدر التي يمكن أن يحيا فيها الدود، وصدقتها لأنني أحبها، وعدت لأكل الجوافة من شجرتها لسنوات، حتى قرَّرتْ بناء ذلك الجزء من المنزل الذي تحتله شجرة الجوافة، فكان لزامًا قطعها، حزنت كثيرًا عليها، ولكنني عدت بالتدريج لأكل الجوافة التي كنت أستشعر أنها ستكون مثل ثمار شجرة أختي.

من المفترض أننا نكبر فتعتدل مشاعرنا أو يميِّزها بعض العقل والحكمة أكثر من ذي قبل، لكنني في الحقيقة حين سمعتُ صرخة ابنتي وعلمت أسبابها اقتادتني إلى ذلك المشهد الذي تنتفخ فيه أجسادنا في قبورها فلا يأكلها سوى ذلك الدود الصغير، فألقت بي إلى نفس الرعشة التي عشتها في ذلك زمن البعيد حين قضمت ثمرة الجوافة بما فيها من دود!

***

الغربة ليست أرضًا غريبة تقلُّك، الغربة خواء في رأسك يفتح على اللاشيء، واللامعنى، واللاقيمة، فلا حب قمين أن يحفظ الجوارح، ولا تقدير يحتفي بالمعروف الذي انقطع أجلُه في لحظة ما من الماضي، الماضي الذي استحال عددًا من الذكريات السوداء والعلامات الفارقة، لقد انتهيت كرجل، وكزوج، وأوشك أن أنتهي كضابط بالضرورة.

نعم انتهيت ولا أبالغ يا أخي، فقد صارت زوجتي تنتظرني كل ليلة جمعة كي أقوم بدور شمشون الجبار، وأنا أتهرَّب منها كفأر مذعور يشمُّ رائحة السم في كل بقايا الخبز بالمطبخ فيتقوقع في جحر بعيد يعاني الجوع والخوف حتى يموت!

صارت كل مرة ترغب فيها أن أواقعها تُسلِّطك أنت عليَّ، وأعترف أمامك أنني أبتلع قرصين وربما ثلاثة دفعة واحدة من المنشطات المستوردة، ولا فائدة ترجى، وكأنني جُرِّدتُ من ذلك السلاح البتار في معركة لا أذكرها، ولا أدري أيًّا من تفاصيلها، كل ما أعيه تمامًا أنه قد استحال إلى قطعة من القصب الممصوص مصيرها إلى سلة المهملات!

سأطلِّقها يا أخي، وكل ما أرجوه منك الآن أن تقنعها أن الطلاق هو الحل الأفضل، واتفق معها على ما يرضيها، فقط خلِّصني منها، حتى لو كان الثمن أن أحيا مشردًا على الأرصفة، فهذا أهون عليَّ من أن يظل بابٌ واحدٌ ينغلق على كلينا، أو فراشٌ واحدٌ يجمعنا!

***

كنت نائمة حتى الظهيرة، على غير عادتي، إثر شهر رمضان وخلل الساعة البيولوجية والحظر الذي ساعد على تولُّد حالة عامة من الكسل، والزهد في كل مظاهر الحياة تقريبًا، استيقظت بالتزامن مع صيحة ابنتي الصغرى: "يا ماما الحقي".

أسرعت إلى مكانها فإذا بها على باب (الحمَّام) تنتفض لأنها رأت ذبابة ضخمة بداخله فلم تجرؤ على الدخول، وأغلقت بابه ووقفت تنتفض فزعة... فتحت باب الحمام ودخلت فإذا بي أرى عددًا من ذلك النوع غير معهود الظهور في البيوت، وألقت بي ذاكرتي إلى بعض المشاهد القليلة التي رأيت فيها ذبابة أو بضع ذبابات من تلك الضخمة وكانت كلها في أماكن مفتوحة وشبه مهجورة حول جثة كلب أو قط أو حمار في طور الدود!

كان من واجبي كأم أن أبدو أمام أبنائي وكأن الأمر عاديٌّ، فخضت معركة صعبة أسقطت فيها خمسًا من الذبابات ونجحت في طرد عدد آخر من نافذة المطبخ.

رحت أهدِّئ نفسي على أمل أنني انتصرت ونجحت في القضاء على تلك الكائنات الغريبة وأحمد الله على نعمة الذباب العادي الذي أراه من حين إلى آخر في المنزل.

قبيل أذان المغرب وكانت فتاتاي قد نامتا وأخوهما يقرأ بغرفته وأنا نمت واستيقظت بعد أن تأكَّدت أن كل نوافذ الشقة مغلقة، فتحت باب الحمَّام فإذا بي أجد نفس عدد الذبابات السابق بنفس الانتشار حول اللمبات البيضاء وفي محيط السقف والجدران، وكأنها نفس الذبابات التي قتلتها وألقيت بها في المرحاض وتركت العنان لتيار الماء الشديد ليجرفها إلى أبعد أعماق المجاري!

خضت معركة أشرس من السابقة، واستعنت بابني للحصول على مبيد للحشرات الطائرة قد يسهِّل لي مهمة القضاء على تلك المخلوقات البشعة.

كان بداخلي أملٌ قويٌّ أنني قد تخلَّصت نهائيًّا من آخر ذبابة بعد أن قمت بتنظيف الحمام بالكلور المخفَّف ثم ألقيت كمية من الخلِّ المركز في المرحاض والبانيو وأفرغت ما يزيد عن ثلثي مبيد الحشرات الطائرة على الجدران وحول الشفاط وبين ريشاته للقضاء على أي احتمال أنه مصدر دخول تلك الذبابات من المنور المجاور، لكن سرعان ما انهار ذلك الأمل بداخلي بعد أن سمعت صرخة جديدة لطفلتي الصغرى بمجرد أن فتحتْ باب الحمام في ظهيرة اليوم التالي!

رحتُ كمن لدغته عقرب أدور حول نفسي وأفتِّش في كل ركن من أركان الحمام باحثةً عن مصدر لتلك الكائنات دون جدوى، فتحت النافذة الصغيرة الوحيدة تحت الشفاط وسلَّطت كشاف الهاتف المحمول على المنور الضيق ففوجئت بعدد من تلك الذبابات ينجذب إلى الضوء فرششت مزيدًا من المبيد فأصبت ثلاثًا أخرى، وبالغت في رش المبيد هكذا في الفراغ، وكذلك فعلت بزجاجة الكلور لعل رائحته النفاذة تقضي على البقية، وقمت بكل إجراءات التعقيم المنزلي الممكنة، وأدرت مفتاح الشفاط لئلا يكون لديَّ شك أنه قد يكون هو ذاته سببًا في تسرُّب تلك الذبابات إلى الداخل...

أغلقت باب الحمام ورحت أراقبه كل فترة حتى اطمأننت إلى أنه قد بدأ يخلو تمامًا من الذباب، لكن حالة من التوتر العنيف بداخلي تمنعني حتى أن أؤدي عملي أو أن أهدأ، ولا أكون مبالغة إن قلت إنني حتى أديت فروض الصلاة باحثةً بداخلي عن أي درجة من الخشوع فلم أجد، فقط آلة تؤدي عملها، ثم وجدت أنني لا بد أن أفرغ تلك

الطاقة شديدة السلبية على الورق، أو بتعبير أدق، على كيبورد هاتفي المحمول.

وأنا أفعل ذلك سمعت صوت طنين قريب جدًّا من أذنيَّ رغم أن كل معاركي الفائتة معه لم تتعدَّ باب الحمام، فقلت لنفسي مؤكِّد أنه صوت وهمي بعد تلك الأوقات العصيبة، لكن الصوت تزايد للأسف، فأمعنت النظر حولي حتى التقطت عيناي ذبابة أخرى من نفس النوع تقف كجسد ميت على مقبض أحد المقاعد، فتسلَّلت خارج الغرفة ساحبة زجاجة المبيد وعدت فإذا بها لا تزال محتلة نفس المكان فظللت أفرغ رشة طويلة باتجاهها فطارت حتى استقرت أعلى النافذة فلاحقتها بالرذاذ، وبدأت الدوران حولها حتى نجحت أخيرًا في قتلها والتخلُّص من جثتها بمنديل ورقي في عمق المرحاض، وشددت عليها السيفون حتى تختفي تمامًا من المنزل، لكنني عدت منهكة القوى وجسدي يرتعد لمجرد تخيُّل معركة أخرى جديدة مع تلك الكائنات في مكان آخر من المنزل!

***

كان عليَّ أن أحتمل شرودها عني وإصرارها على الانفصال، كما أخبرتها أنني مستعدٌّ لما تريد، فلو أنها تريد الطلاق فسأفعل، وإن كانت تريد هدنة تختبر وأختبر فيها مدى غنى كلٍّ منا عن الآخر فوافقت على الهدنة، ولكنها أبعدتني عن كل شيء في حياتها، وحتى أحلامها، بل بالأخص أحلامها!

صارت تتعامل مع العالم بحرية غير مسبوقة في وجودي وتفرج عن نفسها بعيدًا عن القمقم الذي تقوقعت فيه مختارة لسنوات، ورحت أرى في التعليق على بعض حالاتها علامات إعجاب وقلوب حمراء كنوع من التفاعل على ما تكتب، كما لو كانت تؤكد لي أنها تنحِّيني بعيدًا، بعيدًا!

***

لا أومن بالأبراج، لكن دعني أتساءل: هل هي مجرد مصادفة أن ألتقي ثلاثة رجال من برج العقرب على مدى سنواتٍ عشر بنفس النعومة والترابية غير المتوافرة للآخرين من بني جنسهم؟

هل احتكر رجال العقرب كل النعومة والبرود حد الاستفزاز لأنفسهم وحدهم حتى أن كلماتهم الناعمة تدغدغ مشاعر كل أنثى تصادفهم حين يقررون غمرها بذلك المزيج من الكراميل الساخن والشوكولاتة السائلة حتى أخمص قدميها!

في حين أن أولئك المتعوسين أبناء برج الجدي، ومنهم ابني اليافع الذي أقرأ بعين قلبي انتماءه إليهم قلبًا وقالبًا، ينسون أن لهم حبيبات يتوجَّب السؤال عنهن، ولا يتذكَّرونهن سوى مع رؤية بعض رسائلهن العاتبة أو اتصالاتهن المنزعجة بحثًا عنهم!

إنها حكمة الله في الخلق أن خلقنا أشكالًا وألوانًا وملايين من الصفات بنسب متفاوتة حتى أن كلًّا منا له صفة تخصُّه وحده بحسب مقاديرها، كبصمة إصبعه، فلا أحد يتطابق مع آخر بنسبة مائة بالمائة ولو كانا توأمين، وهذا يجعلنا نفكِّر في علاقة شديدة التعقيد تُدعى الزواج، فكيف يحتمل شخصان متغايران وليسا بالضرورة متكاملين أن يحتمل كلٌّ منهما الآخر مساحة زمنية ممتدَّة لسنوات قد تقترب أحيانًا من نصف قرن أو تزيد؟! أظنه أمرًا مثيرًا للبحث والتمحيص والدراسة، وأول سؤال يتبادر إلى ذهني كيف يحيا المختلفون وذوو المشكلات سنواتٍ دون أن يبادر أيهما لإنهاء تلك المأساة إلى أن يقول القدر كلمته الحاسمة فيها ومتدخلًا بإنهائها بموت أحد الطرفين!

كان أبي (رحمه الله) وزوجته (متعها الله بالصحة حتى آخر عمرها) أهم مثال في حياتي على الأزواج التعساء، فقد تزوجا قبل ستين عامًا،

وظلا معًا عشر سنوات بلا أبناء، وعركتهم الحياة بتفاصيلها القاتمة حتى حانت لحظة قدرية حاسمة تزوج أبي فيها أمي وأنجبا الكثير من الأبناء في عشر سنوات أخرى وسارت المركب رغم كل التدبيرات المعترف بها لاحقًا سواء بإنهاء الزواج الثاني ذا، أو بسواه، وفي شهور حمل الزوجة الثانية بالطفل الأول حتى أعيت الحيل من أراد بهما سوءًا وكيدًا، وصار الابن الأول ومن تبعه من إخوة أمرًا واقعًا رغم أنف الجميع، وكانت الزوجة الثانية راضية كل الرضا ويكفيها أن ابنها من زواج سابق يعيشان معها بلا قيود ولا شروط، واعتبرت هذا إنجازًا ضخمًا في حياتها التي لم تختر شيئًا فيها سوى أن يتعلم جميع أبنائها رغم الظروف الصعبة وضيق ذات اليد، واستطاعت بالإصرار وبالمثابرة وبتوفيق من الله قبلهما أن ترى جميع الأبناء خريجي كليات جامعية.

***

انقطعت عن زيارة زوجتي وكأنني أحاول إقناع نفسي أنها من أخطأت بحقي حين أرادت أن تتحرَّر من علاقتنا، علاقتنا التي صارت مع إيقاف التنفيذ لما يقرب من عامين، وأنا أعاني خلالهما كل صنوف الابتلاء، قررت أن أبدأ رحلة العلاج الروحي وأقنع نفسي أنني سأكون أفضل لو أنني تابعت حالتي مع معالج روحي، والأهم ألا تعلم هديَّة شيئًا عن ذلك.

أوقعتني الظروف في شخص نصاب (دجال من العيار الثقيل) سحب مني مبالغ طائلة من المال في أشد أيام خسارتي وعوزي واحتياجي!

لا أدري تصنيفًا لتلك اللعنة سوى أنها (عكوسات) وأنني يجب أن أحتفظ بقوتي ولا أتردَّد أبدًا في المقاومة وإقناع نفسي أنني تعافيت، حتى رغم معاناتي بسبب النصاب الأخير الذي أوهمني أنه أحضر لي ذلك العمل المكلَّف بتحطيمي وإهلاكي، وجعلني أقرأ على الورقة بحروف مقطعة (يهلك)، ويفشل في العمل والزواج!

لم أكن أجرؤ على الاعتراف أمام هديَّة في تلك الظروف، فرحت أبتعد عنها ولم أهتم إن كانت ستقدِّر حالتي وتحترم غيابي أم أنها ستعتبر أن ذا اعتراف معلن بتفريطي في وجودها بحياتي!

***

يقتسمان عقلي يا حسن في محاولة من كليهما للاستحواذ على جسدي، لا يرى أيهما الآخر، أنا فقط من أرى وأشعر وأتأثر، فأما الأول فإنني قد استحلت أمامه إلى وعاء من النحاس المجنزَر، لا ينجلي صدئي مهما بذل من محاولات، وهو شخص مكتئب بالاعتياد، فلا صبر له على المداعبات الطويلة، ولا النعومة المأمولة، وإن تشجَّع وبدأ محاولته مرة، فإنه من الصعب أن يكرّرِها، وبمجرد أن يتأهَّب هو للقرب ينتهي كل شيء في لحظات معدودة وسط فورانه ودمعاتي!

وأما الآخر فمحترف في معاملة الأنثى، وليس ذنبه أنني قد عشت قصصًا أبطالها يشبهونه، فصار ما يقوله وما يفعله معي مكرورًا ومحفوظًا، حتى إنني صرت أتنبَّأ بما يقول وما يفعل قبل أن يفكِّر هو في النطق به أو التحرُّك باتجاهه!

فهل يصمد حتى تنكشف العوائق أمامه أم ماذا ينتظرنا جميعًا في الغد! قد أتملَّص من جواب حاسم لم يأتِ حينه بعد.

هل أخبرتك أنني في أثناء تلك المحاولة الفاشلة لممارسة الحب كان وجهٌ آخر هو من يطاردني وشفاه ساخنة غليظة تحاول تنحية شفاهه عني لتستأثر هي بتقبيلي! وطيفٌ لمجهول حاضر بحدة، ظللت أستجديه أن يبتعد، من أجلي أنا لأنه يشتِّتني، فلا أنا استطعت أن أنتشي، ولا هو معي فيحلِّق بي إلى ذلك الفضاء البعيد الذي لا يجيء!

مُرَّةٌ يا صديق، تلك القبلة التي قرَّر طبعها (في خيالي) خلسةً على خدي، أو بين شفاهي في عجلةٍ كي لا أعترض، رائحة البن تجذبني، ليس طعمه، لو تحكمنا أذواقنا في الاختيار سأشرب القرفة بدلًا من القهوة، وأقبل خدَّيه أكثر من شفاهه، وأرقص التانجو بدلًا من الفالس، وأختار الحضن بديلًا عن ممارسة الحب في أحيان كثيرة،

ليس رفضًا لممارسة الحب أو هروبًا منها، بل أنا أعشق تفاصيل رقصي خلالها، وقد يكون هروبي إلى الحضن مجرد محاولة ألا أكتشف تلك الرقعة الممتدة في جيب قميصه، أو ذلك الاهتراء البادي في سلاح المبارزة الخاص به!

***

هل تعرف كم تستهلك مصر وحدها من الحبوب المنشطة سنويًّا؟ يكفي أن تعرف أنها في السنوات الخمس الأخيرة في مراكز متقدمة جدًّا، لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ومع هذا فإن نسب الطلاق تكاد تكون الأعلى في العالم ولأسباب أغلبها يتعلق بالفراش، سواء الخيانة الزوجية، أو توتر العلاقة بين الزوجين، وعلى الأرجح تخلِّي الرجل عن امرأته لأنها تهمل نفسها، وبشكل أقل: زهد المرأة في العلاقة لأن رجلها لا يشبعها!

نحن مجتمع مفكَّك يا صديقي، ومثلي ومثلك نماذج من ضحاياه، فها أنا لم أدلف بعد إلى الأربعين وحياتي وحيويتي الجنسية قد ذهبتا مع الريح، وأنت في طريقك إلى اللحاق بي مهما كابرت وادَّعيت غير ذلك يا حسن!

أمثالنا لم يكن لهم أن يتزوجوا، أو يرتبطوا بالتزامات تجاه أسر هم أربابها رغمًا عنهم، أبدًا لم تفكر أنت ولا أنا كذلك أن لدى كلٍّ منا بنتًا قد تلتقي نموذجًا آخر يشبهني أو يشبهك، هل نحن مستعدان أن تتعرض بناتنا لما نفعله نحن مع فتيات أو سيدات بعضهن يقعن فرائس لتسلُّطنا أو لتهديدنا لهن! فلو كفلت ألقابنا السلامة لبناتنا ونحن في سلك الخدمة، فماذا يمكن أن تخبِّئه لهما الحياة بعد تقاعدنا، أو حتى بعد رحيلنا!

سوف أعيد النظر في حياتي يا رفيقي، وقد تمنعني ابنتي تلك ذاتها من التفكير في الانتحار، وكل ما عليك فعله لأجلي الآن أن تقنع زوجتي بالانفصال في أسرع وقت ممكن.

***

أخذت حمامًا دافئًا وارتديت (سالوبيت) أبيض منقوشًا بالورود تشبُّثًا بالبهجة، فما زالت بداخلي طفلة تفرح بكلمة إطراء، ومراهقة تنتشي بلمسة يد وتنبت لي أجنحة بحضن بين الأصابع، وكنت دائمًا أرى أن حضن راحة اليد هو رمز إلى حضن عميق للروح والجسد والأفكار معًا، وليس من معنى للحياة كرجلٍ بالقرب تتوافق كيمياء روحه مع كيمياء روحي، وقد يستحيل الجسدان مساحة للاكتشاف.

بمجرد أن يغلق زوجي الباب خلفه أستعيد رجالي السريين من درج التذكارات المخفيَّة، وأمارس معهم بوحي المكبوت، وأستمع لشكاواهم من زوجاتهم وأربِّت على أكتافهم المتخيَّلة، لعلِّي أجد في مآسيهم ما يلهمني الصبر على أزماتي الصغيرة.

وحين يسألني أحدهم عنه، سأقول ما أروع الحضن، دون الخوض في تفاصيل إخفاقه في كل مرة يحاول فيها أن يغزوني، فينحني سيفه على مدخل كهفي!

وحين يسألني هل قضيتِ وقتًا سعيدًا سأجيبه بأن حضنه كان أروع من كل المرات، لأبرهن لنفسي على نجاحي في احتراف الكذبات البيضاء!

سأكف عن اللوم، عن العتاب كذلك، وسأرحمه من أسئلتي التي لا تنتهي من عينة: أين أنت؟ لِم لَم تسأل عني كل هذا الوقت؟ ماذا تفعل؟ ألم تفتقدني؟ كل هذه مكالمة تليفونية؟ من تحدثه أهم مني؟ متى ستأتي؟ سأزيل أحمالي وأسئلتي جميعًا من فوق كاهليه، وسأدعه لينعم بالهدوء وأكف عن محاصرته بامتداد اليوم، لكنني مع هذا كله سأكون مضطرة أن أكف عن الحب، وأبحث عن شيء آخر لأفعله، فلقد علَّمتنا جداتنا وأمهاتنا أن الطعام الذي نقف من أجله خمس

ساعات في المطبخ ويؤكل في خمس دقائق هو أشهى الأطعمة وأكبر دليل على تلك المشاعر التي لم يكنَّ يتقنَّ التعبير عنها سوى كذلك.

***

أشتهيها يا أخي، وأعشق هاتين العينين الماهرتين في المراوغة، أودُّ لو أنني أستطيع هزيمة الخوف الكامن في رعشة صوتها وهروبها من وجودي، أسقط في هوَّة بلا قرار، وتتقاذفني أفكار نيِّئة بلا أمل في نضج قريب يهيِّئُها للتداول، ولاحظت أنها تتحوَّل إلى وسادة إسفنجية لا روح فيها حين أحاول أن أهمَّ بها، أو إلى لوحٍ من الخشب غير القابل لإعادة التشكيل، لاحظت ذلك حينما حاولت أن أمسك يدها، ولولا فضحتها عيناها لما كان من السهل أن أكتشف تلك الكتلة من اللهب المشتعلة بداخلها.

هي تراني مجرَّد ذكر، ككل الرجال الذين حاولوا التهامها من قبل، وتركوا بين عينيها خيطًا من الحزن الدفين لا يفارقهما أبدًا، هل أنا مجرد رجل شهواني؟! نعم باقتدار، كيف أخفي حقيقة مشاعري حتى لو نجحت في إخفاء خوفي، عن أقرب شخصين إليَّ في الحياة: أنت ونفسي يا صديقي!

لقد اكتشفت أنني حين أحادثها تستيقظ كل مشاعري النائمة، والمسافرة منذ زمن، أنت الشاهد على إخفاقي لثلاث مرات متتابعة مع ثلاث نساء مختلفات، كنت أنت وسيطي لديهن، ومع ذلك حين أحدِّثها، وعلى غير عادتي مؤخرًا، أشعر أن الحياة تدبُّ في أعضائي المتيبِّسة، هل لديك تفسير يا صديقي؟!

هل يمكن أن يكون السبب هو الحب؟ هل أحببتها؟ هل أشتهيها لأنها بعيدة؟ هل الرغبة هي ما يحرِّكني نحوها؟ وظنِّي أنها بعيدة المنال يشعل في نفسي حرارة استثنائية؟ هل أنا بحاجة إلى زيارة طبيب نفسي؟! ولو أن هذا صحيح فهل أجرؤ أن أفعل؟

...

أجبني يا صديقي، ولا تتركني أتخبَّط هكذا، ويكفي ما أنا فيه من الانعدامية ورفض كل ما حولي، هل سيجعلني الطلاق أهدأ؟ هل هناك أمل في أن أستعيد فحولتي المفقودة؟ لا أريدها سوى لأثبت أنني رجل في عينيها ولو لمرة وحيدة، مرة وحيدة أعتصرها بين ذراعيَّ وتشعر باكتمال أسلحتي وبثقتي في نفسي وقدراتي، حتى لو كان هذا هو كل شيء بيننا!

***

لا شيء يدوم يا حسن، المتعة تنقضي، والراحة تنتهي، والحب كطيفٍ يطلُّ برأسه في المساء، وبمجرد أن تعلن الشمس عن نهارٍ جديد يتوارى وكأنه لم يكن!

الاكتئاب عدوِّي اللدود، يحاصرني في الأحبة، في الأصدقاء، في المقربين جميعًا، وكأنه اختارني وحدي ليحرمني منهم جميعًا! وكأنه امتدادٌ لشبح الموت الذي غيَّب ثلَّةً منهم بالتتابع، ألهذا نحيا؟!

ليختطف الموت عددًا ليس هيِّنًا من الأقربين، ويتبعه الاكتئاب ليصيب الصفوة المتبقية! سأظل أقاوم حتى آخر قطرة عمر في كأسي المترع بالمرارات!

لكن عدني أيها القدر أن تدع لي قلةً تؤنسني، فلا أزال أشعر بالوحشة كالأطفال في الوحدة، وأبحث عن أبٍ ليتمي الممتد، وأفتقر إلى صديقٍ يسمعني مهدِّئًا لوعة الفقد التي تفتُّ في الصدر، كم أفتقد حبيبًا يعبر بي إلى الضفة الأخرى من ذلك النهر الذي أصابته الملوحة مؤخرًا، فدعني أطلق آهة وجعٍ تضيِّق تلك المسافات التي كانت غضَّةً بين الضلوع، دعني أفسح الطريق لدمعٍ يأبى أن يتجلَّط وحده، دعني أغمر بدني في حوض رحيقك، وحدي، دون شريك، وبلا عذاباتٍ مؤجَّلة!

تذكر حين تحدثنا عن العلاقات! قلت لك حينها إن للعلاقات مسؤولية ليست هيِّنة، فلم أكن لأتخلَّى أبدًا عن المقربين، لكن بعضهم ينحِّيني قسريًّا، فلا شيء بيدي ينتشلهم من تلك المتاهة، الأقدم مني، الأعمق والأوسع مني أضعاف المرات!

كنت أعاني كل صنوف الوحدة، وكان لا بد أن أبحث عن صوتٍ أحبه، لينتشلني من هوَّة الفراغ الذي سقطت فجأةً بين براثنه، هداني

قلبي إلى صاحب أجمل صوت ينطق اسمي ورحت أتشبَّث بنبراته الدفيئة رغم آثار الإرهاق فيها، كنت أود لو أنني تجرَّأت وطلبت منه أن يحميني من تلك المرارة المباغتة التي يغصُّ بها حلقي، وأودُّ لو أن لساني طاوعني لأطلب منه أن يحتوي آهاتي المعلَّقة بين حلقي والأفق، بلا رغبةٍ في التحرُّر، وكأن الحلم بطيف ابتسامة أعزُّ من فاكهة الجنة!

بعد أن ماتت أمي تجلَّدت في استقبال كل أخبار الموت وحتى التي تخصُّ مقرَّبين، حتى أنني لم أدمع لوفاة أحد لسنوات، وبعد أن مات أبي بفارق اثني عشر عامًا، صرت أبكي بمجرد أن يعبر أذنيَّ خبرٌ عن موت شخص، حتى لو كان غريبًا، وصارت دمعاتي أقرب رفاقي إليَّ!

اختبرني الثقل فعشقت الخفَّة، وآلمني الناس فعرفت الله، وراح الخزي يورثني نوعًا من الإمساك العصبي، أشبه بهرَّة تحتضر في صمت، أو قد تكون حنجرتها استحالت نفقًا يتردَّد فيه مواؤها منعكسًا إلى الداخل، فيضاعف آلامها مثلي تمامًا.

اليتم ليس فقط أن تفقد أبويك، فالحبيب الذي يعتزلك لنوبة اكتئاب ألمَّت به يصنع جدارًا من اليتم قد يفصلكما إلى الأبد، في رسالة أنه ما زال يخجل منك!

عادةً ما يتركني المقربون في أكثر وقت أنتظر منهم مساندتي خلاله! ربما هي مجرد مصادفة، وهم لا يقصدون، أعرف، ربما يهربون من سطوة الشغف، أعي هذا تمامًا، لكنني في أمسِّ الاحتياج إلى مشاعر نبيلة، عزَّت في غابة الحرمان التي صرنا جميعًا نعاني في جدبها!

كنت في الرابعة عشرة حين رأيت دمًا للمرة الأولى في ملابسي الداخلي، دفقة وحيدة أورثتني الدهشة وبعض ذهولٍ في الخلفية، هرولت إلى أمي التي اتسعت ابتسامتها إلى ضحكة شديدة السعادة عبرت بي إلى شاطئ آمن بدَّد ذهولي واحتوى دهشتي، (يا صلاة النبي).

ضمَّتني بهجة صوتها، وإن لم تضمني ذراعاها، بعد أيام قليلة كنت أعاني عددًا من المشاكل النفسية والصحية، وكأنه عامٌ فارق على كل المستويات!

قضيت مع زوجة أبي خمسة عشر يومًا متصلة، عدت بعدها إلى أمي، فطلبت منها أن تمشِّط لي شعري، فكانت واحدة من أعظم المآسي في حياتي!

لا أذكر الآن سوى نشيجي المكبوت وآلامي وآلام أمي البدنية والنفسية التي استمرت لسنوات بعد هذا المشهد، فأمي قد أصابتها الحمى قهرًا على شعري الذي كانت تجمع كوماتٍ من خصَلِه المعقَّدة نتيجة تلك الجريمة التي شاركتني زوجة أبي إياها، فقد رحت أمشِّط ما تطوله يدي دون الاهتمام بمنابت الشعر في فروة رأسي، وكان شعري شديد الخشونة والغزارة في آن، كلبلابة ملتفَّة السيقان والأوراق، ولم يبقِ من شعري سوى أقلِّه، ولم يعد أبدًا بعد تلك اللحظة مثلما كان قبلها!

وأما أنا فقد تعبت كليتي اليسرى لعامين متصلين، زرت خلالهما عددًا من الأطباء، وبعد تماثلي للشفاء أصابتني نوبة طويلة من حساسية الصدر استمرت ما يزيد عل ثلاثة أعوام، لم يكن سببها الوحيد موقف شعري، وإنما انكشفت قصة حبي وتبادلي الرسائل المفعمة بالأشواق بيني وبين طاهر، زميلي في المدرسة، واشتكت أمي ذا كله لإخوتي الرجال، فراح كل منهم يعالج الموقف بطريقته.

لا أذكر الآن موقف أخي الأكبر، رغم أنه كان مدرِّسًا بالمدرسة الإعدادية التي كنا بها أنا وزميلي، كنت أنا في فصل (1/2)، وهو (3/2)، وكانت فصول الصف الثاني بالدور الثاني كلها، فكثيرًا ما كنا نلتقي، دون كلام، وبمجرد أن انتهى موسم الدراسة وجاءت العطلة الصيفية

انقطعت رؤيتي إياه، لكنني يومًا ما كنت سائرة في الشارع الذي يسكنه، ففوجئت به يسرع إلى البيت ثم يعود خلال ثوانٍ معدودة، ويعطيني علبة مغلقة ثم يغادر، لم أفتح تلك العلبة سوى بعد أن عدت إلى المنزل، فإذا بي أجد طاقم أكسسوار في غاية الرقة (كوليه قصير وقرط وخاتم)، عشقته حتى إنني ارتديته لفترة طويلة على نحو مستمر، وأحضرت له دبلة مضلَّعة تجمع بين اللونين الأسود والفضي، وأرفقتها بخطاب غرامي طويل على عكس خطابه البرقي الذي صحب هديته، أرسلت إليه هديتي وخطابي مع أختي الصغرى وابنة عمتي التي كانت تعرف المكان جيدًا، وهو معتادٌ أن يكون في ذلك الشارع يوميًّا في نفس التوقيت.

أحداث كثيرة وخطابات أربعة لكلٍّ منا كانت مع الآخر، لا أدري لماذا حين عدت من شقة أبي، بعد نفس الرحلة التي فقدتُ فيها شعري وجدته قد ترك لي خطابًا برقيًّا كعادته يعلن فيه عن افتقادي بغضب، فكان مني أن أقنعت أختي وابنة عمتي أن يخبراه أنني مت، وحين فعلتا ذلك بكى، فأشفقتا عليه وأخبرتاه أنهما تختبران مدى صدقه في حبي طلب منهما الانتظار قليلًا، وعاد بكيس بلاستيكي به خطاباتي ممزَّقة ودبلتي مُطبَّقة وقصاصة ورق صغيرة بها جملة ''كان أملي الوحيد أرجو ألا تخونيني، الكذب شمعة لا تضيء!''

اضطررت أن أرضخ لرسالته وأردُّ بنفس الطريقة فأرسلت إليه هديته وخطاباته البرقية ممزَّقة تمامًا مثلما فعل.

كان هذا جرحي الأول، لكنني لم أكف عن حبه أربع سنوات أخرى بعد هذا الموقف، وجمعتنا الأيام رغمًا عنا في المرحلة الثانوية، في فصل مشترك، كنا نقضي أكثر الحصص الفارغة معًا، نتحدث ونغيب عن باقي زملائنا الذين كانوا يتوحَّدون بأدراجهم الخشبية في تلك اللحظات!

أذكر حين أعطيته كراسةً كتبت بها عددًا من الأسئلة وأعادها إليَّ في اليوم التالي بعد أن كتب إجاباته عن أسئلتي، أذكر أنه قد كتب لي عن أفضل مغنية (نجاة) وأفضل أغنية (عيون القلب)!

أذكر أنه صرَّح لي بالحب غير مرة، على الأوراق وفي الواقع، حين كان أول شخص يكتشف أن لون عينيَّ يتحول إلى العسلي الفاتح المشوب بالخضرة كلما فرحت، معترفًا أن عينيَّ جميلتان!

يومًا ما حين تفاقمت حالتي واستحالت نوبات السعال الجارحة إلى آلام بين ضلوعي اصطحبتني أمي إلى طبيب التأمين الصحي في الوحدة الصحية بالقرية، طلب مني أشعة على الصدر وبعد ظهور نتيجتها أخذتها وذهبت إليه بمفردي لأن أمي كانت مشغولة والوحدة الصحية إلى جوار المدرسة، فكان أن تعرَّضت لأول تجربة تحرُّش في حياتي، فبعد أن رأى الطبيب الأشعة طلب مني أن يعيد الكشف، وحين تمدَّدت على السرير الجلدي ووضع سماعته على صدري وطلب مني الجلوس واضعًا السماعة على ظهري راح يتحسَّس ظهري بنعومة غريبة فنحَّيت يده بقوة بيدي المرتعشة، ولم أسمح له أن يكمل الكشف، لكنه لملم اضطرابه ومسح حبات العرق التي برزت فجأة على وجهه قائلًا: "ألف سلامة عليكي"، وجلس على مكتبه حتى هندمت ملابسي وعدت فأعطاني روشتة بها عددًا من الأدوية، ولم أعد إليه أبدًا بعدها، ولكنني لم أستطع مصارحة أمي بالأمر، لكنَّ وهمًا نبت بين ضلوعي منذ تلك اللحظة لم ينتهِ أبدًا.

وأنا في الثانوية العامة أصابني ذات يوم مغص شديد وكانت أمي في هذا اليوم مشغولة بالخبيز فرافقتني ابنة خالي إلى طبيب الوحدة الصحية ببلدتي، وكان رجلًا قد جاوز الخامسة والأربعين ويعرفني جيدًا بعد ثلاث نوبات جفاف متتالية في أقل من شهرين، وكان كريمًا

للغاية في كل مرة كانت أمي معي فيها، في تلك المرة التي كنت أشكو فيها من مغص ومعي ابنة خالي طلب منها أن تنتظرني بالخارج، وراح يفحص بطني بالسماعة مرة وبأصابعه الغليظة الحادة مرة أخرى، فقال لي إن هذه الآلام تُدعى (القولون العصبي)، وأن السبب فيها أنني تعرَّضت لإيذاء شديد بمشاعري، وفي الواقع أنني حينها بالفعل بكيت، ولكنني لا أذكر حالًا لم! فقال لي إن هناك نوعًا من التدليك يقاوم تلك الحالة وراح يشرح لي، أو هكذا أوهمني، أنه يعلِّمني كيف أقوم به لنفسي، ليس أقل من ثلث ساعة قد مرَّت وهو يضغط على منطقة أسفل السرة وحتى عظمة العانة، وجع هائل ممتزج بخدر غريب لم أعهده من قبل، علا صوت أنفاسه تدريجيًّا وشعرت كذلك أن أعصابي المشدودة جدًّا ترتخي فجأة بعد أن انتفض جسدي كله!

بعد أعوام طويلة استوعبت أن تلك المنطقة قادرة على الوصول بي إلى ذروة المتعة بنفس طريقة التدليك التي كان يمرِّنني على القيام بها، وأنه كان يمارس نوعًا من التحرُّش لم أعهده من قبل، وفي الواقع لم أتعرَّض له بعد هذا الموقف أبدًا!

***

هل تظن أن زوجتي مظلومة يا حسن؟ لا أنت ولا هي يمكن أن تنسيا لي أنني رافقت فتاة ليل ستة عشر عامًا! وأن زوجتي قد أُقحِمت إقحامًا على حياتي حين اقترحتها أمي زوجة لي وعدَّدت لي مواصفاتها التي رأت بحكم خبرتها بولدها أنها الأنسب لي، وليتها ما فعلت يا صديقي، فإن آخر شخص يمكن أن ألتقي وإياه روحيًّا هي تلك الزوجة التي حوَّلت حياتي إلى جحيم!

نعم كنت أقسو عليها حتى تصل قسوتي إلى الضرب، ولكنها من أجبرتني على ذلك، فقد كنت أعود إليها بعد يوم عمل طويل فلا أجد الأمان المنتظر في البيت، وتلتقيني بمشاكلها ومشاكل الأطفال معها، ومشاكل الجيران والأهل، وما فعلته أمي وأمها، وأحداث لا قِبَل لي بالاهتمام بها أو مشاركتها في الحديث عنها، كلما رأتني أكتب تلمَّظت شفتاها وكأنها ترى رجلًا أصابته نوبة جنون!

كلما هممت أن أتحدث إليها في أيٍّ من أمور الثقافة أو حتى السياسة كنت أرى أمامي كائنًا جاهلًا لا يفقه شيئًا، رغم تعليمها الجامعي الذي لم يضفِ عليها ولو حتى الحد الأدنى من الوعي!

دعني أعترف أن كل عام كان يمر بيننا ونحن زوجان كان يدمِّر قدرتي على الإخلاص لنفسي، قبل أن أكون خائنًا لوجودها هي في حياتي، أنا لا أبرِّئ نفسي من الشره والتوحُّش، لكنني ألعن استمرار وجودها الذي قضى على رجولتي، ولن يعيد الأمور إلى مستقرها سوى الطلاق، ومهما كلفني سأفعله كي أستطيع أن أكمل حياتي دون ارتكاب جريمة قتل!

***

ثلاث دورات شهرية متتالية كان لنا بين كل دورة وأخرى منها لقاء وحيد، لا يزيد في أفضل الأحوال عن عشر دقائق، ومرة منها سبقت اللقاء مداعبات متقطِّعة هي في الواقع الجزء الوحيد الذي يشبه الممارسة الحميمية المفترضة بين زوجين!

لست أحتسب نقاطًا لانتصاري أو لهزيمته، فكلانا خاسر كل الجولات المنقوصة أو المنتهكة أو المبتورة على أقل تقدير، والنتيجة جسد أشبه بجوال من الملح يحوِّله الثقل إلى علَّة في مدخل بيت ضيق مكتظ بالكراكيب فيتعثَّر به أي شخص يفكر في الدخول إليه.

في الليلة الفائتة، وبعد فراق طويل بيني وبين بعض قوائم أغانيَّ المفضلة، شدَّني حنين خافت إلى موسيقى (ألف ليلة وليلة)، وذلك المقطع الشهير (يا حبيبي يا حبيبي إيه أجمل م الليل واتنين زينا عاشقين!)، فإذا بي أستشعر طيف رجفة كنت أصل إليها وأن أمارس الرقص لأكثر من ساعة وأنا أحلِّق فوقه، وكأنني فراشة عشقها الأعظم هو الرقص، كم كنت أشعر بالخفَّة يا رفيق، كم كان يعجبني خصري المنحوت في تلك اللحظات وكأنني استحلت إلى (بجماليون) حيَّة من لحم ودم.

سأفرغ كل ما بداخلي من ثقل، وأتحرَّر من إدماني إياه قطرةً فقطرة، وأخوض معركتي مفردةً منه مكتشفة نجماتي المتوارية من جديد، وربما مارست الرقص حرَّةً في الفراغ، بلا رجُل في الخلفية!

وبلا غواية، فالغواية هي القدرة على الابتسام ثانيةً في وجه نفس الشخص الذي سبق أن صوَّب فوهة مسدسه إلى رأسي، والفراق غياب قسري للأحبة سواء من ماتوا ومن رحلوا رغمًا عني أو عنهم، والمرارات هي ما يتبقى لنا من مجموع الفراقات التي نكفُّ عن عدِّها

بعد الأربعين، فهي كثيرة إلا أنها قد استحالت أشباحًا وفقرات مكتوبة أو متوارية في ركن الذكريات!

ثَمَّ تواطؤ تلك المرة على فراق إجباري دون نضوب لمخزون الحب، الحب الذي لم يصمد بطلًا أمام وطأة الضغوط، وطلاسم السحرة وعُقد الجن، وما تتلو الشياطين معلِّمة الناس السحر؛ الحب الذي أرَّقته التخلِّيات، وأرهقه التكشُّف، وحوَّله الكذب إلى شبح باهت!

عليَّ تلك المرة أن أبدل أغطية الفراش تلك بأقصى سرعة؛ فلا أطيق الانفراد برائحته خلف باب مغلق، سأعترف دون خجل أنني ما زلت أعشق رائحته، صوته، حضنه، ما زلت أعشق محض وجوده، لكنني اليوم أهرب من غيابه المفروض عليَّ إلى تغييب إراديٍّ تمامًا، من صنع يدي، وسوف أعتاد وحدتي عن جدارة، دون رفاهية التراجع، يملؤني الشعور بالخفَّة بعد أن تحلَّلت من وطأة معصميه فوق كتفيَّ، ولم يكن ذلك زهدًا ولا نفورًا، فما بي ليس سوى حبٍّ جارف عرقله الجدب، حتى إنني قرَّرت أن أخاصم كل رجال العالم، غضبًا من ضعفه، وأراود قلبي عن سنواتي الست معه، وأظل أحمِّم بدني هربًا من رائحته، وأزعم أني كنت أحبه يومًا، وسوف يودِّع قلبي مخزون الدمعات الـ(كانت)، أو أخدع نفسي، فلعلَّ الدمع يعانقني أو يطرد حرماني، ويبدِّد ظمئي، أو علَّ الدمع سيشبعني، أو يسمعني كلمات الحب، آه، ما أقسى الحب!

أذكر رغمًا عني حين حاول أن يلمس جسدي وكيف استحلت إلى لوح من الخشب العنيد، لا شيء يفلح في استعادتي الإحساس بأنني من لحم ودم، كلما أغرقتني قبلاته زاد تجمُّدي، وهو العارف بأكثر مناطق ضعفي فراح يداعبها متتالية وما أنا إلا أزداد تخشبًا وصلابة، وكأن روحي قد فارقت جسدي فراقًا وقتيًّا فتركته بلا حواس، لم أكن أدَّعي

عدم الإحساس، فأنا فعلًا لم أكن أشعر به، رغم كل استجداءاتي السابقة واحتياجي المعلن إليه ورغم رغبتي الجارفة حتى قبيل مجيئه.

وعدني أنه سيتحسَّس جسدي وفقط، لكنه خلال دقائق ورغم عدم ظهور أدنى تجاوب من جسدي راح يخترقني عنوة ورغم حديث الألم الذي بدا واضحًا على ملامح وجهي، ورفضي المعلن نتيجة ما أشعر به من ألم حقيقي فقد تمادى حتى وصل إلى ذروته دون أدنى شعور بالخجل أو التعاطف مع آلامي الجسدية والروحية مجتمعة!

***

ما عدت أميِّز الأيام، وما أدراني فارق السبت عن الأحد، ولا شيء مغاير أكلَّف به يومًا ما لأستطيع عد سوابقه في انتظاره، الأيام يشبه بعضها بعضًا ولا شيء سوى سواد في الليالي، فلا الأبنية شاهقة الارتفاع تكفل لي أن أرى قمرًا أو حتى هلالًا، فلا أحسبني ألحظ إلا محاقًا لا يتغيَّر ولا يتخلَّله أدنى بصيص من ضوء.

لا أدري عدد الساعات ولا الأيام ولا الأشهر ربما، أفاجأ أن زوجتي ترسل إليَّ عددًا من الرسائل الثائرة توبِّخني فيها على برودي وإهمالي ودَّها، هي لا تعلم أن عنصر الوقت مغيَّبٌ في رأسي، لا تعلم أنني أجلس بالساعات كتمثال شمعي في درج متوسِّط من ديب فريزر، لا يشغله سوى أنه بأمان ما ظل في الفريزر، ولا يعبأ بشيء لو أنه أخرج يومًا عنوة من ذلك الدرج!

هو أصلًا لا يفكِّر في القادم ولا يشغله أكثر من اللحظات التي يحياها دون شغف وبلا أمل في تغيُّر يطمح إليه في القريب! هكذا أنا، أنسى أحيانًا أنني متزوِّج، وأن هناك امرأة تنتظرني بمكان ما في هذا البلد!

كيف بي أستطيع تجاهلها حتى تشتعل إلى هذا الحد؟ أغيب عن زوجتي فكيف أغيب عن صديقتي؟ أنا نفسي لا أفهم ما يحدث، هل أنا مغيَّب حقًّا إلى هذا الحد؟

هل أستسلم لتلك القيود المثقلة كاهلي؟

هل سأفيق يومًا لأكتشف ثورتها على وجودي في حياتها؟ بل بالأحرى غيابي عن حياتها في حين يُفترَض وجودي، بل واحتوائي إياها، كلما هممت بالتفكير في ذلك وجدت أن الشفرة الخاصة بها في ذاكرتي معطَّلة، وجميع بياناتها (إيرور)!

***

كنت أعشق النعناع الجاف ورائحته في كل الأكلات التي أصنعها بيدي، وبعد فترة نفد كل ما بمطبخي منه ولم أتمكَّن من الحصول على نعناع أخضر في تلك الفترة، فليس ذا موسم النعناع، لأجفِّفه بيدي لأنني أحب ما أجفِّفه أنا، واضطررت إلى الاستغناء عنه وأنا متضرِّرة، لكنني شيئًا فشيئًا قد اعتدت غيابه، حتى أنني بعد فترة نسيت مذاق النعناع المجفَّف في الطعام، وبعد سنوات كنت في مرة أشتري البقدونس والكسبرة الخضراء والشبت لزوم المحشي (الذي أحبه جدًّا لكنني قليلًا ما أشغل نفسي بصنعه، وأكتفي بأكله عند الأحبَّة حين كان هذا متوافرًا)، فداعبت أنفي رائحة النعناع الأخضر التي ما زلت أحبها، فقرَّرت أن أشتري حزمة أو حزمتين، عدت إلى البيت وصنعت أشهى مشروب ليمون بالنعناع الأخضر يمكن أن يخطر على بالي تذوقه، تبقَّت بعض عيدان النعناع على رخامة المطبخ حتى جفَّت، وكنت واقفة أطهو حمامًا محشوًّا بالأرز والبصل، فتذكَّرت طعم النعناع الجاف مع القرفة والزنجبيل، فأمسكت ببضع أوراق جافة من النعناع، وفركتها بين إصبعيَّ ووضعتها على خلطة الأرز، وجلست أتناول طعامي وابنتاي معي تطريان مذاق الأكل كالعادة، لكنني شعرت ببعض التغيير في الطعم الذي كنت قد اعتدته طويلًا، لقد رفضت ذائقتي طعم النعناع بين توابل الأكل، وكأنني أبدًا لم أحب النعناع الجاف ولا رائحته في الطعام.

حين تكون حاضرًا بشدة في حياة شخص ما إياك أن تستمرئ الغياب؛ ابقَ دومًا أو غِبْ إلى الأبد!

***

آه يا حسن! من أنا يا رفيق العمر؟ رجل فاشل أخفق أن يواجه أباه بما طمح إليه في حياته واضطر إلى الخضوع لسطوة وجبروت ذلك الأب الذي لا يرى في المدى سوى صورته الشخصية حتى إنه يريد أن يجعل ابنيه صورة مفرغة منه دون التفات إلى ما يريد كلٌّ منهما أن يحقِّقه في مستقبل أيامه! لا أنا استطعت أن أتحقَّق ككاتب ولا استطعت أن أحتفظ لذاتي بعدد من الساعات يوميًّا أعكف فيها على القراءة، عشقي الأول، وربما الوحيد. لم أتمكَّن من دراسة الطب ولا التخصُّص في الطب الشرعي الذي كنت شغوفًا به أيما شغف، لم يمكنني حتى أن أطلب الاختلاف ولو نظريًّا ولا جرؤت أن أقنع ذلك الأب المجحف أن يدع لي اختيار الخدمة في الجيش بدلًا من الشرطة. فصار كل ما أفعل ضد رغبتي وعكس قناعاتي، فلا أنا أحببت زوجتي ولا هي احتملت جنوني ونزواتي، بل تحوَّلت إلى وحش رابض بجانبي يهبُّ كل فترة في وجهي دون اكتراث بما يتسبَّب لي فيه من إيذاء نفسي وبدني ومعنوي، كم اشتبكنا بالأيدي وضربتُها وضربَتْني، كم تطاول كلٌّ منا على الآخر بالشتم والقذف والسب، كنت أنا السبب الأول وربما الوحيد لذلك التغيُّر الحاد الذي حدث لها، فبعد أن كانت زوجة مسالمة وضعيفة فقد صارت غولًا يدمِّر كل ما تصل إليه يده، لا سيما روحي!

هل صار لزامًا أن أبتلع لساني أمام أبي وأظل أمارس عملي دون أدنى اعتراض وبلا أي إبداء للرفض؟ وفي نفس الوقت أظل رفيقًا لزوجة متنمرة كل غايتها في هذا العالم أن تشوِّهني وتنتقص من صورتي أمام كل أنثى أراها رأي العين أو تحدس أن بيني وبينها حديثًا من أي نوع، وأظل محرومًا من القراءة والكتابة بفعل فاعل ولا أملك حتى دفترًا أدون فيه ما يحتل ذاكرتي المغربة المبعدة عن كل ما أرغب وما أود!

هل يسعفني الانتحار الآن؟ وماذا أنتظر حدوثه لأهم بالتنفيذ في ظل قتامة لا أرى سواها ولا أتنفس سوى ريحها الزنخة!

***

طريق الألف تدليلة يبدأ بتدليلة واحدة أدلِّل نفسي بها وإن كانت بسيطة، بعد نصائح بعض صديقاتي المقربات بأن أوجه طاقة الحب الأمومي إلى نفسي، قرَّرت أن أمرن نفسي أن أحبَّني، أحبَّني ولا مانع أن أدلِّلني لبعض الوقت أو في بعض المواقف التي تستحق ذلك، فبعد جهد جهيد استمر ثلاثة أسابيع، ونوم قليل متقطِّع وسباق مع الزمن ومشاكل البي دي إف عند تحويله إلى (وورد) بالعربية وتلف بعض الملفات في ربعها الأخير حتى وشك الانهيار، أستطيع أن أقول دائمًا وأبدًا: الحمد لله، ها قد وفقني الله وأنهيت العمل في ذلك المشروع الذي كان تحديًا صعبًا، ولا يبقى لي فيه سوى جلسة مشاورات ما بعدها هيِّن وبسيط بأمر الله، واليوم هو الأول لعودتي إلى حياتي الطبيعية، عمل خفيف، أعمال منزلية عادية، لم أنتبه بعد للمؤجَّل منها، ورغبة نهمة في الكتابة، وكأن نفسي أوحشتني وجئت لألتقيها هنا بين سطوري التي تعتصر صدري كفلَّاحة تحلب بقرتها ذات الضروع الممتلئة، أية متعة كتلك التي تستشعرها أصابعها حين تضمُّ تلك الضروع الدفيئة بين أصابعها إلى راحة يدها فيسري خيط من الهدأة بين أوصالها.

سأعترف أنني أوحشتُني، أوحشَتْني حروفي، مشاعري، لمستي، أوحشَني ملمس جسدي بعد أن أنزع تلك الشعرات المنثورة على ساقيَّ وذراعيَّ وبين فخذيَّ، وقليل من الزغب تحت إبطيَّ، كنت أؤجلها حتى أنهي كل ما كان يشغلني من ضغوط، وقد تكون المرة الأولى التي أريد التخفُّف فيها مما يثقلني لأجلي وحدي، وليس لرجلٍ في الخلفية، سأنزع هذا الشعر المجعَّد لأسمح لتلك المنطقة الغضَّة أن تستمتع بنعومتها ودفئها المطبوع، سأقصُّ أظافر يديَّ وقدميَّ، وأهذِّب شعري الذي فضَّلت الاحتفاظ به قصيرًا وفق إرادتي التامة وأنا مستمتعة

به، واثقة أنه يضفي بهاءً إلى عينيَّ المتشبِّثتين بالحياة، سأترك لنفسي حرية التمتُّع باستدارة نهديَّ الاستثنائية وكأني أحتفل معهما بموسم الحرية، وأضبط إيقاع حياتي بمذاق مختلف، لعلِّي أكتشف جمالًا آخر أوقن بوجوده.

***

كلما أثقلني عجزي يا أيها الغريب الذي كرهته أكثر مما كرهت عجزي، فكرت أن أذهب إلى ذلك الرجل الذي يعبد الشيطان (لا يمكن أن يكون سوى كذلك في الحقيقة) وأقتله، فقد أستريح من همّي الذي لا ينتهي وحبسي في ذاتي الذي أحياه، والأيام التي تكرُّ واحدًا إثر آخر وأنا محدَّد الإقامة النفسية ومغيَّب عن العالم إلى هذا الحد تنزلق بعمري إلى منحنى الهلاك، وهذا ما يصنع التعاويذ من أجل حدوثه، (يهلك) هي هدفه الأساسي والوحيد، أهلك جسمانيًّا ونفسيًّا وجنسيًّا وحيويًّا، أهلك فلا يبقى لروحي أثر ولا لتقدُّمي وجود، أتحوَّل من رجل قوي ذي شخصية وذي سطوة في المجتمع وذي قبول بين الناس إلى رجل غير متزن نفسيًّا، منزوع الثقة من النفس، متردِّد ومذبذب وتخفت كتلته كأن جسده شمعة مشتعلة بلا توقُّف، فإذا بي أصير شبحًا يستعصي على الرؤية.

أي حضور ذا الذي تنتظره زوجتي مني وأنا عن نفسي غريب! تتردَّد الفكرة في رأسي غير مرة، أغيب عن الوعي للحظات فأراني أقتحم بيته وأمسك برقبته بمنتهى القوة والتحدِّي، وأهدِّده أن يفرج عني وإلا أزهقت روحه ورحت أستعيد وعيي ومعنى حياتي، حتى لو أنني سأحيا كقاتل يستغفر الله على ذنبه الذي ارتكبه مرغمًا ليستعيد حرِّيته النفسية والمعنوية.

هل حكم عليَّ بالضياع والسجن إلى الأبد؟ هل لأتحرَّر من سطوة الشيطان أرتكب إحدى الكبائر؟ أي تخبُّط ذلك الذي ينتابني ويجعلني أهذي كمجنون لا يعي أي شيء مما حوله! ليتني متُّ بلا وطأة ذلك العذاب الذي يذيقني الموت كل لحظة.. أيتها الشياطين الموكلة بحبسي داخل ذاتي، ألا فارحلي عني وإلا أحرقتك بالنار وبآية الكرسي.

نعم، لا بد أن أحرق بخورًا وأزور الأولياء، فقد يكون في ذلك خلاصي من السجن والغليان المستمر برأسي.. هل أبحث عن جلسة زار وأحضرها ربما تخلّصني من تلك اللعنات الجاثمة فوق رأسي؟!

ربما أجرّب أن أدوِّخ تلك الشياطين التي تتقافز أمام وجهي وتشتِّت تركيزي وتجرِّدني من أماني النفسي وشعوري بما حولي.

أظن أن الأوقع أن أفتِّش عن موعد مولد سيدنا الحسين أو السيدة زينب (أم هاشم)، وأذهب إلى الحضرة في الليلة الكبيرة، حتى أذلَّ رقاب كل الشياطين التي تتعرَّض لي بسوء ببركة آل البيت.

***

لو أنه فتش بين أوراقي يا حسن سيقرأ أنَّ شعورًا فارقًا هو ما أبعدني عنه إلى هذا الحد، فلم أشعر أنني منه يا صديقي، قلتها له يومًا صريحة واضحة بلا أدنى مواربة، ما أسعد من تشعره أنه قطعة منك، وكم تجلَّت إنسانيته فيما بدا من تفاعله مع أخته، وبناته وبنات إخوته، ذلك الأب الحنون المحتوي، الفزِع إن اشتكت إحداهن أو شاكتها شوكة ولو كانت شوكة وردة بلدية تتشمَّم عبيرها!

لكنني أبدًا لم أشعر أنني مثلهن، لم يفلح حتى أن يمثِّل هذا الدور معي ولم يعنِّ نفسه أن يفعل، فقد كان قاسيًا حتى النهاية، بلا ودٍّ عميق ولا حتى متصنَّع، كنت حدَّ أمانه، ولم يكن لي حتى حد اكتفاء!

وزاد في وجعي ضعفه وأنانيته اللذان لم يتبدَّيا بذلك الوضوح وتلك القسوة سوى أمامي، نعم لقد انكشف أمامي بذلك القدر الذي استحالت معه احتمالية القدرة على الاستمرار، كان لا بدَّ أن يرحل وأن أتجاوز مرحلة وجوده في حياتي كالعَلَق حتى يمكنني أن أحفظ بعض سلامي النفسي وبقايا طاقتي المهدرة.

قرَّرت الهجران بلا مواربة يا صديق، لكنني أمهلته حتى يستجمع قواه ويلملم شتات ضعفه، فليس نبلًا أن أنسحب انسحابًا باتًّا وهو في أقصى منحنى الضعف، عليَّ أن أنتظر أن يستردَّ عافيته ليتمكَّن من العيش دوني، نعم صرت أمَّه التي لم تنجبه، وأخته التي لم ترافقه سنَّي حياته، وفجأة احتلَّت تلك المساحة، وزوجته التي قدَّمت كل ما تستطيع ولم ينفق شيئًا لا ماديًّا ولا معنويًّا ليحتفظ لنفسه بالقوامة عليها، ومع ذلك فقد أمعن في ممارستها كاملة!

قل له إن أجمل سنواتي تضيع بلا جدوى، ليس سوى حرمان عاطفي يتوازى مع حرمان جسدي وعقلي في نفس الوقت...

قل له إنني كدت أعترف أن بداخلي خواءٌ غير قابل لإعادة الحياة إلى بقاياي التي تقاوم التشوُّه والذبول...

فقد تكون تلك هي المرة الأولى التي يمتدُّ تفكيري فيها عابرًا للإطارات القديمة، دون بحثٍ عن آخر أمارس أنوثتي أمامه أو أتلذَّذ بنظراته إلى مفاتني ومواطن جمالي، دون رجل قوي أبحث لديه عن الإشباع الذي تحوَّل في تجربتي إلى حلمٍ عزيزٌ هو الوصول إليه، دون جنتلمان يلثم أصابعي ويطبع قبلات حانية على يديَّ وبين نهدي وبطول سلسلة ظهري وعلى جانبي رقبتي، ثم مداعبًا أسراري بشفاهه، ومذوِّبًا خلاياي في حضنه.

دعني أسرُّ إليك سرًّا آخر، لكنه تلك المرة يخصُّ صديقاتي، ويخصُّني، صادقت الكثيرات، منهن من كان لها أثر قوي في حياتي، ولكنني أبدًا لم أجد من تشبهني، فإما تلك المتزمِّتة التديُّن وإما المتحرِّرة حد الإلحاد، أو المذبذبة حد الضياع!

لم ألتقِ من لها نفس أفكاري ونفس رؤيتي للحياة، كلهنَّ إما خارجات من أسر متحفِّظة حد الانغلاق فتمرَّدن على كل ما هو منطقي ومألوف حتى خلعن الحجاب وتخفَّفن من الأكمام وقصَّرن فساتينهن، أو متردِّدات بين الهوى والتديُّن فالتقين أزواجًا جعلنهن منتقبات لكنَّ قلوبهن تضجُّ بأفكارٍ عارية!

وربما كان هذا هو الدافع أن تكون صداقاتي الرجالية تهبني الراحة، فلم يكن أيهم يعلِّق على مظهري أو شياكتي أو امتناعي عن الماكياج، أو حتى عدم اهتمامي بالتخلُّص من الشعر المتناثر في وجهي ولا سيما فوق شفاهي.

كنت أفضِّل البنطلون الجينز الواسع وبلوزة فضفاضة تجعلني حرة في المواصلات العامة وفي المشي وفي الجلوس على الكراسي الخشبية

بالمقاهي البلدية حين أقرِّر ارتيادها مع بعض الأصدقاء المدخنين أو المدمنين للشاي الأسود أو الشيشة.

وحين قرَّرت الانعزال لبعض الوقت عن أصدقائي الرجال تعبت جدًّا في التأقلم مع النساء، فمن امرأة متأخِّرة عن مواعيدها باستمرار لأنها راحت تنتقي بين ثيابها الخمسين ما ترتديه، وبين ماكياجها الفاتح والغامق واللامع والمط، وبين أحذيتها الرياضية والكلاسيكية والمناسباتية، وبين عشرات الروائح والعطور، فتأتي متأخرة ما لا يقل عن ساعة على موعدها، إلى أخرى تضرب الموعد في إثر الآخر وتعتذر كل مرة بحجة مختلفة، بين الزوج والأبناء والأحداث، وثالثة تغير رأيها في الموعد الواحد سبع مرات على الأقل، لهذا كله لم أنتظر كبير عون من أيهنَّ مهما بلغت درجة قربها مني ومهما كانت حميمية علاقتنا.

ولهذا أيضًا اقتربت من الرجال وعوالمهم، وصار حديثي مع الأصدقاء قابلًا للتطرُّق إلى بعض المناطق المحظورة، وربما هذا ما جعل أغلبهم يطمع في جسدي، فخسرت الكثيرين إما بسبب رفضي المباشر، وإما لأنني اخترت أن أهرب، فلا طريق يوصلهم إليَّ حين أقرِّر الابتعاد النهائي.

رجال تلك الأيام يا حسن خياليون بسبب السوشيال ميديا وما يقترفه بعقولهم مجتمع الفيسبوك، يضيف أحدهم الأنثى (أيًّا كان موقعها منه) بحسب صفحتها الشخصية ومواصفاتها النفسية، وهو متخصِّص في تحليل أبعادها وما تحبُّ وما تكره حتى أنه من الممكن أن يحصل على درجة الماجستير في أحوالها المزاجية وأسباب سعادتها وشقائها على كوكب الأرض، فيرسل إليها أو يستقبل منها طلب الصداقة وبمجرد أن تقبله أو يتلقَّف هو طلبها يدخل لها على الخاص، صباح الخير

...

أنا حاسس اني اعرفك من قبل، متأكدة اننا متقابلناش؟ يمكن بأى أرواحنا اتقابلت في السدوم ويبدأ حوارات عديدة لتكون أمامي الفرصة لأختار أيها يناسبني لنتبادل عنه أطراف الحديث، فنتحول بقدرة قادر إلى صديقين، وحين أتعلّل بظروف العمل وأنهي الحوار وأنشغل في حياتي وأنام، بمجرد استيقاظي من نومي أجد رسالة بحروف مكررة طوييييلة (وحشتيني).

ولأنني مللت هؤلاء سأنزوي إلى ركن أمارس فيه طقوس الإحساس بالذنب، دون لمساتٍ أشعلتني ولم تطفئني، دون طعم شفاهٍ أسكرني بلا أمل في الإفاقة، دون حضنٍ احتواني فقط في خيالي وانتُزع عني عنوة لأنه ليس لي وليس من حقي التفكير فيه أو الحلم به، دون أمنياتٍ بلقاء قريب ولا انفراد متوقع لأنني لست حرة ولأنه ليس قابلًا للتقيُّد، دون محاولة أخرى للاحتفاظ بعلاقة شائكة كاشفة محرِّضة.

عينان لامعتان لا شيء بهما سوى سيول من الرغبة ورجاء بأقصى مساحة قرب ممكنة، عينان عنوانهما الغواية!

الغواية التي تسرَّبت حتى أطراف القمقم، ثاقبة إياه بمخالبها ومساميرها الحادة، ومنقِّبة عن تلك المضغة التي أعترف بهوائيتها، والتي من أجلها حبست نفسي باختياري بداخله حتى كدت ألتصق بجدرانه، سيظل قلبي غضًّا شغوفًا بالما وراء، مفتونًا بالمغامرة، قادرًا على الاندهاش كل فترة.

للغواية أعين مفتوحة يا حسن!

وها أنا أمارس الكذب باقتدار، الشيء الأكثر بغضًا إلى قلبي والأكثر رفضًا في حياتي، والأبعد تمامًا عن أفكاري وقيمي، لست كصاحب الغاية تبرِّر الوسيلة، وإن كان هناك بعد مئات السنوات من برَّأ ميكيافيللي من أهم مبدأ اشتهر عنه في كتاب (الأمير)، ولست

مع نيتشه الذي استهجن الكذب، ومع ذلك خرج على كل طقوس الفضيلة وانخرط في تبرير المتعة أيًّا كانت طقوسها في هدم مخطَّط لمنظومة الأخلاق والدين، والتعامل مع الإنسان على أنه القيمة الأكبر في الكون.

أرأيت يا صديقي كم نحوم حول الأماكن التي ارتكبنا فيها بعضًا من ذنوبنا الشخصية جدًّا، وكأننا ارتبطنا بمجال أثيري حولها؟ فبعض الأماكن لها طاقة جاذبة تشدُّنا أميالًا وأميالًا لنسير في مجالها ولتسبغ علينا من طاقتها الطاغية.

قديمًا كانت تأخذني خطواتي إلى تلك الأماكن التي سرت فيها مع بعض الأشخاص الذين حفروا في قلبي بعض التذكارات التي لا تغيب، وشكَّلت تلك الأماكن أنفاقًا متعددة في الروح ظلت طرقًا لهؤلاء وحدهم يتجوَّلون بممرَّات روحي حيث شاؤوا ومتى شاؤوا، وإن انقطعت أخبارهم وأحداثنا المشتركة منذ سنوات بعيدة!

***

تعرف يا حسن! بل إنك لا يمكن أن تعرف، أريد أن أختلي بهديَّة في مكان مغلق، لا تلح علي ممارسة الحب معها، بل أريد فقط احتضانها، صرت أتعامل مع ذاتي على أنني رجل عاجز، ولا يشغلني ذلك ولا يهزُّني، ولا أظن أنها ستعيِّرني بعجزي، لأنني لن أطلب منها ذلك، كل ما أطلبه أن تضمَّني ضمَّة احتواء، بذلك الفيض الأمومي الساحر في عينيها يمكنها أن تخلقني من جديد، أن تصنع مني ذاتًا أخرى تسامح قاتليها وتتطهَّر من آثامها وأخطائها الفظيعة، أن تشحنني بالطاقة الإيجابية التي تتقافز من روحها كلما سمعت صوتها، وفي لقائنا الوحيد العابر، كم وددت لو أن هذا اللقاء يكون بين جدران مغلقة لا يرانا فيها سوى أنفسنا، لا لشيء إلا لأبكي بين يديها وأطلب منها أن تقوِّيني وتستوعب ضعفي، تحتويني وتمنحني السكون، تظل إلى جواري حتى أهدأ فأنام في حجرها كطفل، أوحشتني طفولتي، طفولتي التي لم أعشها، ولم يُسمَح لي بممارسة أيٍّ من مظاهرها، كلما أفتِّش بداخلي عن لعبة كنت أمارسها أخفق في التذكُّر، هل كنت طفلًا؟ لا أظن أنني عشت أية طفولة، ولا أظن أنني كنت شخصًا سويًّا، كانت سطوة أبي هي الكبت الذي ولَّد الانفجار على يد أم صديقي التي علمتني الحياة وأنا بعد ابن خمسة عشر عامًا، وجعلتني أرى الأمور جميعًا وفق رغبتي ونهمي، لم أتورَّع عن العبِّ من أجساد النساء حتى خذلني جسدي وخذلتني قواي يا رفيق!

***

بعد ثلاثة أشهر يا حسن من الشد والجذب سمحت له أن يأتي، ربما لأختبر ما كان بيننا وهل غاب أم ظل، وقد أكون متشوِّقة إلى إحساس الجسد، فقد يكون الحضن بديلًا عن الإخفاق في الممارسة، ويا ليتني ما ظننت ذلك!

ليلتين قضيناهما معًا، ولم يظهر للمنشطات التي يدمنها سوى أثر خفيف، لا يتعدَّى رفَّة فراشة لمرة وحيدة حول النار قبل أن يحترق جناحاها، ففي المرة الأولى راح يقبِّل شفاهي كثيرًا، وأنا أرضخ لمحاولته علَّه يستعيد بعضًا من لياقته فقرَّرت أن أكون مستقبلة لانفعالاته وحركاته وسكناته، حتى استطاع أن يفلت بخمس دقائق صافية من المتعة، وظفرت بمثلها أنا أيضًا، ونجحت في الحصول على متعتي وهو يشعر لا يزال بالنشوة!

وفي اليوم التالي بعد أن اجتهد محاربًا ما يدعوه الشيطان ونجح في الخروج إلى صلاة الجمعة، عاد وكأنه مغيَّب عن العالم فقرَّرت الاحتماء بالقرآن ورحنا نسمع سورتي الكهف والبقرة ونردِّدهما لأكثر من ساعتين، استطاع بعدهما أن يفتح عينيه ويقرُّ أنه قد استراح وعاد شبه طبيعي، ثم صحبني إلى غرفة النوم، وفي تلك المرة كانت الجولة جولتي، فقرَّرت أن أقتنص فرصتي من فم الأسد، وهذا ما كان، فقد استخدمتُه جسديًّا، وروحي شاردة...

هل رحت أستدعي ذلك النجم الشاب، ممشوق القوام ذا الجسد الرياضي، الممتلئ صحةً وجمالًا وسلامة من الشيخوخة؟ هل رحت أستدعي كلماته في مشهد ما بممارسة الجنون ولو لمرة وحيدة؟ أم أنني كنت أفكر لو أن رفيقي يستطيع أن يراقصني لساعة كاملة دون خوف من الهزيمة.

كنت أغالب ضعفه، في محاولة للاستمتاع إلى أقصى درجة ممكنة، لم تثنِني حالته الصعبة عن الوصول، فقد رحت أداعبه بكل ما أوتيت من حيل إبداعية كي يستجيب، دون حياة ولا أدنى استجابة، أغمض عينيَّ وأحاول أن أرى ما أشتهي فأشتعل أكثر وتستجيب خلاياي للاشتعال فتصل إلى قرب القمة بأعجوبة، فقط بفعل الخيال وسلاح نصف مُشهر يأبى اكتمال التأهُّب، وبمجرد أن يشعر باقترابي ينتهي بأقصى سرعة سارقًا قمَّتي ومحبِطًا اشتعالي، ولكنني في إصرار على الوصول أطلب منه أن يساعدني فيفعل بدافع الحرج، وأؤجل كل أفكاري وأهتم فقط بالوصول وأغمض عيني حالمةً حتى أذوب كمكعَّب من الثلج بين أصابع محموم ثم أتفجَّر مرتعشة وآهاتي تقطع صمت الجدران!

***

طلَّقتها يا صاحب السنوات الحلوة والمرة، طلَّقتها وارتحت أخيرًا من ذلك الثقل الذي كان يكبِّلني كأساور حديدية ذات أقفال تلتفُّ حول معصميَّ، آه يا حسن لو أنني أستطيع كذلك تسوية معاشي بالشرطة، سأشعر حينها أنني تخلَّصت من كل ما يجرِّدني من هدأتي، أخيرًا صرت بلا زوجة مجنونة تنتابها نوبات من الثورة قد تصل حد الاشتباك بالأيدي، هل تذكر يوم أن ذهبنا بها إلى معالج نفسي فربطها في سرير الكشف وبدأ يصدم جسدها بالكهرباء؟! أظن أنها منذ ذلك اليوم قد تغيرت كثيرًا، وصارت أكثر عدوانية وأكثر شراسة، لقد انقلب عليَّ كل ما فعلته بها، لقد استقوت عليَّ يا صديقي، وربَّما كنت أنت السبب، لأنك دائمًا تسمعها وتعدها بما تريد، وتجبرني على فعله، وحين يحتدُّ الموقف بيننا تكون أنت من يتدخَّل، ولا أثق في سواك لأنك أعلم الناس بي، وبها أيضًا.

أخيرًا تحرَّرت وإن كنت لا أثق في جدارتها برعاية الطفلين، نعم اتفقنا أنها ستتسلَّم مني كل أول شهر ثلثي راتبي، بعد أن احتفظتْ بالشقة ولو كانت تتقن القيادة لأخذت سيارتي كذلك، فصرت كالمشرَّد لا أدري أين أذهب، هل أعود إلى العيش مع أبي وأمي؟ لا أستطيع وأنا في تلك الظروف احتمال تلك المواجهة التي أؤجلها مع أبي، سنوات وأنا أتفنَّن في تأجيلها فليس وقتها الآن تمامًا.

سأبيت في استراحة المديرية حتى أستطيع تدبير مكان أقيم فيه، ولا أنكر أنني بقراري ذا قد استرحت جدًّا، وبدأت أشعر أنني إنسان، وقد أعترف أنني كنت مخلوقًا ساديًّا وأنا من دمَّرتها وجعلتها وحشًا كاسرًا بعد أن كانت قطة هادئة تكسل عن الحركة لئلا تجوع وتضطر إلى البحث عن طعام!

أنا من أفسدت حياتها منذ اليوم الأول للزواج، وجعلت لها شريكة فيَّ ورأت شواهد ذلك بعد أول أسبوع زواج، فقد كنت أتركها لأذهب إلى معشوقتي التي عرفتها قبل الزواج لعشر سنوات وظلت في حياتي بعد الزواج ست سنوات أخرى، وكان هجرها لي أحد أهم الأسباب لخراب حياتي كاملة! عاملت زوجتي بحدَّة واستعلاء وضربتها كثيرًا، وسبَّبتها ولعنت أهلها مرات ومرات، وظلت خانعة خاضعة لأعوام، ولكنها مع الوقت قد تحوَّلت كمن أصابه مسٌّ من الجن، فجأة وجدت أسدًا يصارعني كلَّما حاولت التجبُّر حتى إنها صارت تردُّ لي الصفعة والكلمة واللكمة!

والغريب أنني لم أعترض، وكأنني أعلم في قرارة نفسي أن هذا حقها، وكلما راحت تستأسد كنت أنا أتراجع، وكأن كل سطوتي قد انتقلت إليها حتى صارت هي رجل البيت بالمعنى الحرفي للكلمة!

***

الاهتمام يا حسن.. الاهتمام لا يطلب، لا يطلب مهما افتقدناه، ومهما كان ارتباطنا بأولئك الذين نطمح منهم في احتوائنا في اللحظات الفارقة.. كلما حاولت الاقتراب منه أو ترويض ذاتي على تجاهل تقصيره، واحتراف التسامح معه أفقت على صدمة عنيفة تشجُّ رأسي مزلزلة كياني.

مثقلٌ صدري بالمواجع، كم قدمت اهتمامي وقلبي بكل الرضا والقبول، وما جنيت سوى وحدة تنضاف إلى قسوة التفاصيل، هل لا بد من معاقرة العذاب لتمنحنا الحياة صكَّ اعتراف بأننا أحببنا بامتياز؟ ألا بد من معاناة متواصلة كدليل على أصالة مشاعرنا تجاه هؤلاء الذين لا يهتمون ولا يعبؤون بجراحاتنا وأوجاعنا ولا انشغلوا قط بتخفيف وطأة اليتم عن أرواحنا النازفة؟ ولماذا تدفعنا الحياة في اتجاه أحادي؟ فمن يقدم روحه فداء لمن يحب لا يجني إلا الصدود، ومن يتحرَّى رضا شريكه المتجبِّر لا يغلق أصابعه سوى على خواء! تلك القبضة فارغة للأسف يا صديق، فارغة من الدفء، من القوة، وحتى من الوجود!

وهل يذكر في صكِّ محاكمتنا أمام الزمن أننا خونة لأننا بحثنا عمَّن يستمع إلى آهاتنا ويخفِّف وطأة الوحدة التي نعانيها جرَّاء إهمال أولئك الذين نمنحهم في حياتنا دور البطولة!

الخواء هو البديل الأسلم، وقد يكون الوحيد عن التخبُّط الذي تعانيه أرواحنا في سجن الإهمال وانتظار الاهتمام من أشخاص يعدُّون الاهتمام بنا رفاهية ليسوا مستعدِّين لممارستها، أو بالأحرى اقترافها في حق ذواتهم المتضخِّمة، أو البائسة أو منعدمة الثقة لأن أحداثًا عادية تمرُّ بهم، ونحن الذين تعهَّدناهم بالحماية وقرَّرنا راضين

أن نحمل عنهم أثقالهم فاستهوتهم الفكرة، وتمادوا في فرضها علينا كحقوق مكتسبة لهم، وكذنوب عالقة بنا، ربما إلى الأبد!

دعني أعترف.. اعترافًا أخيرًا ربما.. زوجي يتضاءل يا حسن، كتلته الجسدية تنكمش، خفة روحه تتلاشى، شبابه يخفت خلف الشعر الأبيض والتجاعيد التي تغزو ملامحه بسرعة البرق، يسكنه الإحباط بلا شريك، لا أنا، ولا ذووه، بل الفراغ فقط هو ما قد يشارك الإحباط فيه، يتكاسل عن الطبيب، وعن الممارس النفسي والمعالج الروحي! هو لا يريد أن يساعد نفسه، فهل يمكن لأيٍّ منا أن يساعده؟ أشك، أشك أنه سيبحث عن طريق ويختار السير فيه، بل إن الأرجح في رأيي أنه سيظل يتضاءل حتى يتلاشى، وتختفي طلَّته التي كانت حاضرة حتى وقت قريب، ولكنه من ترك للشيخوخة المجال لتتفشَّى في كل شيء، في حياته، وفي محيطه وفي أفكاره! فيا ليت العمر يظلُّ مثلما ابتدأت السنوات، لكننا لا نقرُّ بما نصل إليه هكذا ببساطة.

سأتراجع أنا أيضًا، سأتقوقع على كتلتي حتى أنتهي مثلما بدأت، نطفة، أو مضغة، أو علقة، سأنتهي إنسانًا، وتظل رغائبي مدفونة بداخلي.

متعبةٌ أنا وحزينة يا حسن، وكأن اليتم جديدٌ، لا أمان، لا حضن، لا حبيب!

كلما بدأت في التسبيح بتلك المسبحة رحت أذكر حضن أبي، إنها حضن عميق أرتمي فيه أثناء تسبيحي وابتهالي إلى الله بها، فقد كانت تشارك أبي تسبيحه؛ أوحشني أبي يا حسن، وأوحشني حضنه.. بضعة أشهر فرَّت من عمر الزمان وكأنها حملٌ ثقيل ونوازل ممتدة!

منتهى الوجع أن أشعر بالفقد وأفتِّش في ذاكرتي عن شخص أبثُّه همومي فلا أهتدي ولا أثق أن هناك من يستقبلني بصدق وحميمية.

تلك المرة لا أخشى الطلاق، بل أنا مهيَّأة تمامًا له، غيابٌ في الحضور خيرٌ منه العدم، سأعود إلى قوقعتي من جديد، سأزرع أسوارًا فولاذية حولي، ولن أسمح لآخر أيًّا كان أن يحتل مساحة قرب في حياتي من جديد.

يكفيني ما احتملت، كلما ظننت أن العوض قريب تكشَّف لي أنه مجرد سراب، أو قطعة من الوهم تخايلني، سأبتعد تمامًا، عنك، وعنه، وعن كل آخر، سأجرِّب أن أرافقني ما تبقَّى من تلك الرحلة، علَّني أدرك اليقين الذي أبحث عنه، فروحي مرهقةٌ يا صديق، وقلبي مأزومٌ بلا سند ولا رفيق، ولا أمان في هذا العالم.

أرجوك، ساعدني ألا أرى في ذاتي امرأة خائنة، وأنا مظلومة ومحاطة بالفقد والوجع، فلا هو موجود وأنا أبحث له عن بديل، ولا أنا أخونه فعليًّا لا معك ولا مع أي آخر، ولكنني أرى أفكاري خائنة، وأود التخلُّص من قيودي وأتحرَّر من ذلك الارتباط الزائف، وأدع لخيالاتي العنان لأحلِّق في أحلام اليقظة بلا ذنوب أجرِّرها وأوهام تثقلني فتمنعني الخفَّة، وتحرمني الطيران.

سأغادر يا حسن.. سأبحث عن أماني هناك، حيث اليقين الذي لا يغيب، والونس الذي لا ينتهي ولا يمل، حيث جنَّتي التي أسكنها منذ كنت طفلة أعبر إليها من ذلك الباب المسدود بالطوب الأحمر المرصوص خلف دولاب الملابس عسلي اللون المموَّج بين البني والأصفر؛ الأصفر الذي كان يسحبني حتى يبتلعني كرمال متحركة شديدة النعومة، شديدة الجاذبية، مفلتة إياي إلى ذلك البراح الواسع الذي أدلف منه إلى أبواب جنَّتي القديمة.

***

ماذا يتبقى لي كي أتخطَّى امتحانًا يوشك أن يكمل عامه الثالث عشر، أي ذنبٍ هذا الذي أفسد عليَّ شبابي وأفقدني القدرة على التحقُّق وإثبات الذات! ماذا يبقى كي أشعر أنني ما زلت أحيا يا رجل؟ لو كان الزمان قد كتب نهايتي عوضًا عن تلك الأحداث الصعبة لقُدِّر لبناتي أن يحيين ويتعلَّمن ويدركهن الأمل في القادم!

أيَّة لعنة تلك التي جعلت كاهلي محطًّا لكل الأوجاع المُرَّة في هذا العالم، وجرَّدتني من شبابي ومالي وتألُّقي ومكانتي بين الناس؟ وما الذي باعد بيني وبين إخوتي حتى أوشكنا أن نتحوَّل إلى أعداء وصارت السنوات تمر دون حتى لقاء؟ أية أفكار منحوسة التي تجعلني أنسى أنني متزوج وأن تلك المرأة لها حق في رقبتي لم أوفِّ أيًّا من التزاماته منذ تزوَّجتها؟

الشيطان يفسد على روحي الحياة، ويجرِّدني من قوتي لئلا أتمكن من الانتصار عليه ولو بنسبة، فكلما جاهدت نفسي وأصررت أن أذهب إلى هديَّة، زوجتي الحبية، ظل ينتقم مني بعدها ويتركني فريسة التخبُّط لمسافة أسبوع أو أكثر، حتى يجعلني أبتعد تمامًا وأحجم عن السؤال عنها وكأنني خرجتُ بلا عودة، وهذا ما يستفز حنقها وغضبها عليَّ بعد أن تنفد طاقة صبرها على تجاهلي إياها، فتستحيل بركانًا يثور على فترات!

لم أعد أعرف الحل الأمثل، هل ينبغي أن أتخلَّص من وجودها في حياتي كي أعود إلى نفسي وسيرتي الأولى؟! هل هي السبب في تلك (العكوسات) التي قلبت حياتي رأسًا على عقب؟

كيف وتلك الأحداث تسبق وجود هديَّة بسنوات، فأنا في منحنى هابط قبل أن ألتقيها بما يقرب من سبع سنوات، ولكنني لا أنكر أن

وجودها وإصرارها أن تتزوجني قد تسبَّب في تعقُّد الأمر كثيرًا عن السابق، وربما أوضح ضعفي وكشف أزمتي الحقيقية.

هل سأقضي ما تبقى من عمري في صراع مع الفراغ؟ هل تلك مجرد أفكار وحالة اكتئاب مزمن مثلما تصر هديَّة أن تتهمني، أم أن هناك ساحرًا يتعقَّبني بالفعل ويتفنَّن في إيذائي حتى أذهب إليه مستسلمًا وأمنحه ذاتي قربانًا للشيطان!

حين كنت أُفضِي لها بما في صدري كانت تدعو لي بالصبر وتوصيني باليقين، وكثيرًا ما كنت أستقبل وصاياها بهجوم وعدوانية وأتهمها بالتشكيك في يقيني وقربي من الله، فصارت تلتزم الصمت حتى إنها كفَّت عن وصاياها تمامًا، وباعدَت بين أحاديثنا مثلما باعدتُ، فجعلتني أكتشف أنها ظلَّت لأكثر من عامٍ تصل ما كنت أنا أقطعه، لكنني طوال تلك المدة لم أكن لأنتبه أنها تصلني وأقطعها، وتصبر وتصمت ثم تعود لتصلني وتسأل عني وتؤازرني في محنتي وابتلائي، ثم أقطعها، ثم تعود لتصلني، حتى أنني الآن حين بدأت أنتبه صرت أشعر بالخزي، وأضبطني متورِّطًا بخذلانها، والانشغال التام عنها وكأنها بلا أثر في حياتي، وكأن طرقنا لم تتقاطع يومًا، وكأننا بلا ماضٍ، ولا يمكن للمستقبل أن يصنع لنا حياة مشتركة.

هل يقود الشيطان معركتي ويجرِّدني من عقلي وهديَّة وهدأتي معًا؟ أم أنني سأفيق وأتمكَّن من هزيمة الشيطان قبل أن يغادر قطاري آخر محطاته!

***

الروح يا حسن، تعبر مئات الكيلومترات لتقرَّ إلى إِلْفِها وتسكن إليه، بعيدًا عن شبهات الجسد حين نتحدَّث مثلما نفكِّر، حين تنساب أرواحنا وقلوبنا بلا أدنى تفكير في العالم خارج حدود التقائنا ولا خارج حدود لحظاتنا المقتنَصة من تلال الالتزامات التي تكبِّل عنق كلٍّ منا، دون أعباء ولا تعقيدات المِلْكية التي يدمنها الشرق كله رجاله ونساؤه، ما أجمل أن تعدو خفيف الكتلة مستريح الوجدان رائق الروح.

هل ما زلت أحبه رغم عذاباتي مع احترافه الغياب، وتسليمه بالأمر الواقع، واعترافه البارد أن لا شيء يملكه ليعدني بتغييرٍ وشيك، وأنه لن يستطيع أن يتحرَّى الحضور ربما لشهور، أو حتى لسنوات، سنوات لا أدري كم منها سأستطيع خلاله مواصلة حياتي وكبت أفكاري في مواجهة نفسي المتمرِّدة والرافضة في آن، وذاتي التي تجلدني ليل نهار لو أنني تخيَّلت آخر (مجهول الملامح) يحتويني حين يهاجمني شبح الرغبة!

اليقين وحده ما يبقى، وأحسب أن يقيني سينقذني، وسأدعك تعلم أنني لا أشتهي رجلاً بعينه، وإنما تنقصني حالة الشبع والارتواء الجسدي، وبنفس الدرجة ينقصني السكن والبوح، واقتسام الأحلام والطموحات والأحلام الوردية مع آخر، ولذا أفكِّر في الانفصال نهائيًّا عن مؤيَّد، لئلا أظل أنتظر منه أن يمنحني كل ذلك أو بعضًا منه.. فأنا مؤمنة تمامًا بالمثل القائل (وقوع البلى ولا انتظاره)، فمواجهتي مع عدم وجوده بحياتي ستكون أهون على نفسي من انتظارٍ لا ينتهي لشخص لا يجيء.. على الأقل سيكون من حقي أن أطلق أحلامي في الفراغ دون أن أخون في أفكاري رجلًا ليس موجودًا سوى بالاسم.. ولا يعني ذلك أنني سأبحث عن آخر يحل محله أو يقدم لي السعادة والمتعة على طبق من فضة، بل ربما يكفيني وجود آخر يسمعني.. يقدِّر تقلباتي المزاجية،

كأي أنثى، تحلم أن تكون طفلة مدللة تارة، وامرأة ناضجة تارة أخرى، وسيدة العالم تارة ثالثة.

لقد هدأت رغباتي كثيرًا، وإن لم تنتهِ، لكن ما أعرفه جيدًا أنني لست أتشهَّى غابة الشَّعر الكثيف التي كانت تأسرني لزمنٍ غير قصير، ولا أنتظر براد بيت ولا أبحث عن ميل جيبسون في أربعينياته، ولا يستهويني ويل سميث ولا سواهم، كل ما أحلم به فارسٌ يدلِّل فرسه حتى يشبعها ويرضي احتياجاتها البسيطة، وكثيرًا ما استطاع حضور مؤيَّد الطاغي إفساد محاولات كثيرة لوصول متوهَّم لا يحدث إلا في خيالي فقط، يشاركني فيه رجل لا واقعي أشبه به هو نفسه على أرض الواقع، (كأنه) هو نفسه، أو سيكونه لو أن الله منحه راحة البال!

نعم يا صديقي، كنت أحب رجلًا (كأنه)، كأنه كازانوفا وكأنه هرقل، وكأنه سقراط، وكأنه نيتشه، وكأنه الرافعي، وكأنه بول أوستر وكافكا وإيرفينج معًا!

وكأنه رجل أوحد، أتوسَّل إلى الله أن يمنحني عصره الذهبي المفقود، وهو ينتظر الجنِّي الذي سيحقِّق له ولي كل الأمنيات، وهو لا يدرك أنه، لا يملك مصباحًا من الأساس!

***

هل لي أن أبدأ حياة أخرى منبتَّة عن حياتي السابقة يا حسن؟ هل بإمكاني نسيان كل السنوات المرة التي تعرَّضت فيها للاغتيال المعنوي حين حوَّلتني زوجتي وأحداثي إلى روح ذابلة لا تفعل شيئًا سوى الضلال والضياع؟ هل سألتقيني مجدَّدًا؟ وأين؟ هل تتقبَّلني هديَّة وتقدِّم لي الدعم الذي أحتاج إليه؟ كيف وأنا أقرأ في كل أحاديثها التي جمعتنا أنها تحب زوجها ما زالت ولا أظن أبدًا أنها ستتركه أو تتخلَّى عنه؟

كم هو رجلٌ محظوظ! نعم محظوظ لأنها تقف إلى جواره، وتعاتبه باسم الحب، وتستعيده بإصرارها الذي لا يهتز، وإن اشتكت من جموده وغيابه، فلم تكُن شكواها سوى وحشة تتقد بين ضلوعها له وحده، بدليل أنها لم تبحث عني، وسلكت أسهل طريق للابتعاد؛ الحظر، فلم تحنَّ إليَّ قط بعد وضعي على قوائم الحظر لديها، ولا طريق يصلني بها سواك يا صديقي، فهل تفعل؟!

تحرَّك يا حسن.. ألقِ بي في طريقها من جديد.. قل لها إنني أحبُّها وإنني أودُّ لو أن كلًّا منَّا يربِّت على كتف الآخر ويحتوي نزفه المتشعِّب إثر معاينة الفقد والقسوة وفقدان الأمان.. اذكر لها أي شيء يجعلني إنسانًا أمامها، فأنت الشخص الوحيد الذي يملك أن يرفعني في عينها إلى عنان السماء أو يخسف بي إلى أسفل أرض، ولا أظن يا صديقي أنك ستخذلني.. قل لي إنك إلى جانبي ولن تتخلى عني يا شقيق الروح.

أنا بحاجة إلى هديَّة من بين نساء العالم يا صديقي.. هي فقط، أحتاج إلى أمومتها الطاغية، إلى اهتمامها اللامشروط الذي قرأته في عينيها في لقائنا الوحيد، أحتاج إلى الطاقة الإيجابية التي تصدِّرها إلى كل من يلتقيها، وابتسامتها التي تحتوي بعذوبتها كل مأزوم.. أنا بحاجة إلى ذلك الصوت القادم من الجنة يا حسن.. أحتاج إلى حوارها الذي

يستفزُّ في عقلي كل قدرات الإبداع التي أظنها في حالة كمون، وربما تبعث فيها الروح من جديد.. أحتاج إلى رفضها العنيف ودلالها الطبيعي غير المتكلَّف.. أحتاج إلى دفء جسدها كذلك في النهاية.. لا أنكر أنني أشتهي جسدها بنفس الدرجة التي أتشهَّى بها روحها وجوارحها.

مُدَّ لي يدك يا رفيقي.. فأنا متعبٌ بحق.

***

طلَّقني مؤيَّد أخيرًا يا حسن.. بناءً على رغبتي الحرة الكاملة؛ نعم.. أرسلت إليه رسالة طويلة أفرغت فيها ما بداخلي من وجع وحيرة وجراحات ممتدة، لكنه استجاب في نفس اللحظة التي قرأ فيها رسالتي وأعلن أنني (طالق)، وأن ما بيننا كله كأنه لم يكن.

وتلك هي الرسالة يا حسن:

"ترددت كثيرًا قبل أن أكتب لك، ولكنني رأيت أن لا بدَّ مما ليس منه بد، وأُشهِدُ الله على صدقي في كل كلمة سأكتبها، وهو أولًا من سيتولَّى حسابي، لا أنت.

تزوَّجتك وأنا على علم بتفاصيلك الصعبة، ولكنني كنت أرجو أن يجد كلٌّ منَّا لدى الآخر ما ينقصه، وما يفتقده، وتوهَّمت أننا بالفعل قد اكتملنا بالزواج، ولكنني لا أخفيك سرًّا قد شعرت بالتورُّط بعد بضعة أشهر هي عمر زواجنا الحقيقي، ولست بحاجة إلى الاستفاضة في تفاصيل تعلمها أكثر مني.

اسمح لي أن أعترف أمامك أنني حفظتك في شخصك وفي جسدي ما استطعت، وظللت مخلصةً لما بيننا من رباط مقدَّس ما أمكنني ذلك، ولأنني اليوم أشعر أن ذلك صار قيدًا خانقًا لن أطيقه، ولن أستطيع حفظه، فها أنا أطلب منك التسريح بإحسان.. فلم يعد بداخلي حنينٌ إلى العودة، ولا شوقٌ إلى تكرار المحاولة، وقد صلَّيت وابتهلت إلى الله طالبةً العون والمشورة، فهداني أن أكتب لك بهدوء شديد، دون مناقشة الأمر مع أيٍّ من كان في هذا العالم، حيث لم يعد بداخلي أي انفعال سلبي ولا إيجابي تجاهك، ولم يعد لديَّ ما يمكنني تقديمه لتلك العلاقة التي بدأت مبتورة فكان حكم القدر بأن تنتهي بالبتر نفسه، وبالطريقة ذاتها التي بدأت بها.

لست أكنُّ لك أية كراهية، بل لقد تسامحت مع كل ما حدث وليس بداخلي ذرَّة واحدة من اللوم أو العتاب، وإنما حياد تام، دون ندم، وبلا رفض، ولا غضب.

اسمح لي أن أحدِّثك بصراحة، بلا خجل، وبلا خوف من رد فعل يمكن أن يصدر عنك، مع الاحتفاظ بالمعروف الذي كان بيننا يومًا ما، نعم كان، لأنه الآن في عداد الماضي، على الأقل فيما يخصُّني.

سيدي..

إنني أحتاج إلى حياةٍ مستقرَّة قوامها الاهتمام والوجود، لا التجاهل والغياب، حياةٍ لم أجدها خلال عامين كاملين، وأنت أدرى مني بذلك، وليس لديَّ أدنى استعداد لفرص أخرى أو محاولات جديدة في علاقة شابها الكثير من النواقص، وتهرَّأت بفعل الصدمات، وانتهى ما بها من مخزون المودَّة الصادقة والحب العنيف، ولا شيء بلا أسباب، ولكنني في الحقيقة لست بحاجة إلى ذكر أسباب ولا دوافع ولا حتى دفوع لن تغيِّر بالأمر شيئًا.

كنت أنتظر أن تأتي، ولكنني أربأ بك وبي أن أنصب لك شركًا أو أستدرجك إلى ما أرغب فيه دون إعلامك بما انتويته، وإني أظن – وأدعو الله ألا أكون مخطئة– أن تلك الرسالة هي أكثر الطرق براءة، وأسرعها وصولًا.

كُفَّ يدَك يا سيدي عن معصمي.. ودعني وشأني بحقِّ ما كان بيننا من معروف وود وإحسان، وحسبُك منِّي أن أحفظ ما كان، ولا أذكرك سوى بكل الخير، وأوقن أنك أهلٌ للخير وأنك لم تكن لترغب في إيذاء مشاعري، ولا في اختيار الخسارة لنفسك أو لي، وأعلم أنَّ ما حدث قد يكون ابتلاءً لكلينا، ويعلم الله أننا صبرنا ما استطعنا، وأعتذر منك عن احتمال المزيد.

صدِّقني.. لم أكن لأقول ما أقوله لو أن بقلبي مثقال ذرَّة من قدرة على الاستمرار، ولو أنني أرى أيَّ خيرٍ في اجتماعنا معًا غدًا أو بعد غد أو حتى بعد عام، ولكنني أعرف نفسي، وأعرف ما أشعر به مثلما أعرف تمامًا الآن أنني أكتب لك أنت.. أنت محمد المؤيَّد الخميسي، لا آخر سواك.

ربما تظنَّ أن هذا نوعٌ من الابتزاز العاطفي أو الإحراج النفسي، لكنني أقسم لك أن ما بداخلي لك قد انتهى إلى الأبد، وأنني الآن لا أرغب منك في أي شيء سوى التسريح بإحسان، على أن يذكر كلانا ما كان بيننا من قربٍ ومودَّةٍ خالصةٍ وحبٍّ في الله، وأُشهِدُ الله على ما كان في قلبي، ولم يبقَ منه سوى تسامح معك ومع السنوات التي قضيناها معًا في الماضي، لكنني لا أرغب بأي حال في استكمال ما بدأناه ونحن عاقلان راشدان مسؤولان عن كل ما فعلناه، وعن كل ما اخترنا ألا نفعله كذلك.

أستحلفك بمن ألَّف يومًا بين قلوبنا أن تجيبني إلى ما طلبت، وأعدُك أنني لن أعترضَ طريقك يومًا، ولن أطالبك بشيء، أي شيء، لا ماديًّا ولا معنويًّا، ويكفيني أنك ستتفضَّل وتتكرَّم مختارًا تمامًا محقِّقًا لي ما سألتك إياه.. وأنت بالخيار كي لا يثقلك المشهد، ولا يثقلك الجدال أن ترسل إليَّ كلمة الطلاق مكتوبةً في رسالة، أو مسجلة في رسالة صوتية، ولن أفسِّر ذلك بعدم التقدير ولا بالتخلِّي، بل سأعدُّه معروفًا جميلًا، ووداعًا هادئًا يليق بشخصين ناضجين، كان بينهما من التفاهم والودِّ ما يستحقُّ أن يظلَّ كلٌّ منهما يحترم الآخر.

وأشهد الله أنني أدعو لك في صلواتي أن يفكَّ كربك ويفتح لك أبواب الرزق الواسعة، ويبارك لك في عمرك وصحتك وذريتك.

...

وأخيرًا...

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾[1].

استرحت يا حسن حين نلت حريتي، استرحت لأن قيدًا قد أدمى معصمي قد انحلَّ إلى الأبد، نعم.. إلى الأبد، وليس ثمَّة عودة محتملة لا في القريب ولا في البعيد.

سأمحو تلك السنوات الست من ذاكرتي ومن حياتي ومن روحي؛ روحي التي طال أنينها تحت وطأة الألم والفقد والغياب في الحضور.

***

هديَّة تضيع من بين يديَّ إلى الأبد، ولا حيلة في استردادها، والآن أحاول أن أفيق فلا أستطيع، ليست تلك إرادتي ولا ما كنت أودُّ إدراكه، أنا محبوس في دوائر إجبارية يا رجل.. أنت لا تعي ما أنا فيه، ولا يعنيك أمري في شيء، ولست أشكو لك، بل أخشى أن تكون ضمن الأسباب التي ألَّبتها عليَّ.

اضطررت أن أطلِّقها بالإحسان مثلما طلبت لأحفظ ما تبقَّى من ماء وجهي، لم يكن لي مفرٌّ أمام كلماتها الحريرية التي لها القدرة التامة على الذبح.. ذبحتني تلك المرأة مرتين؛ فالأولى حين جعلتني رجلًا مهزومًا ومكسورًا أمام ذاتي، والثانية حين انسحبت من حياتي بلا رحمة.

وماذا يفيد اعترافي بأنني ما زلت أعشقها، وأنتظر اكتمالي بها؟ ماذا يفيد أن أتحرَّى صوتها، كلماتها، ملامحها في أعيني الملتهبة؟ ماذا يفيد بكائي على اللبن الذي سكبته بيديَّ، وربما عامدًا!

عقلي يرفض أن يعود إلى الحياة، ويؤجِّل كل مواجهة بيني وبينه لا سيما فيما يخصُّ هديَّة، يؤجِّل أن يخوض معركة مع الشلل الذي أشعر أنه صار يكبِّله ويحول بيني وبينه.

حين طلبت مني الطلاق لم أكن قد أفقت بعد من صدمتي في أعز أصدقائي، فقد صار خصمًا لي ولن أسامحه أبدًا.. أنا لا أحكي لك لأستجدي عطفك وإشفاقك، بل لتعلم أن النوائب لا تتكاتف سوى على رجل قوي وهو يحاول الاحتفاظ باتزانه ما استطاع، فقد تكون عدوًّا عاقلًا وتقدِّر محنتي، فتكفُّ عن تحريض هديَّة ضدي.

وقبل أن أفيق من صدمة صديق العمر (شريك العمل والحياة)، ضربتني صدمة أخرى أكبر في مقتل، فقد كان أحد أصدقائي المقربين يحاول البحث عني وأنا محبوس داخل أزماتي ودوائري الضاغطة،

وكرَّر الاتصال بي ولم أرد، واليوم فوجئت أنه في مستشفى العزل بين الحياة والموت.. وتلك النوبة الثانية من (كوفيد 19) أبشع وأخطر من سابقتها التي قضت على أكثر من عشرة ملايين إنسان حول العالم، وهذه المرة لم تعد الخطورة في أنه مرض معدٍ فقط، بل إن حكومة البلاد قرَّرت تطبيق مبدأ (مناعة القطيع)، وهذا المبدأ خطورته في أنه سيجعل الغالبية العظمى من الشعب تصاب، وينجو من كتب له بقية من حياة، ويموت من أصابه الدور! وهذا يجعل من يحيا يكتسب مناعة طبيعية ضد هذا الفيروس اللعين.

أبدًا لن أسامح نفسي لو غاب صديقي دون أن ألتقيه.. دون أن أخبره أنني أحبه.. دون أن أبادله كل المودة التي استمرت عمرنا كله.

كثيرًا ما كانت هديَّة تلومني على عدم مبادرتي إياها بالمداعبات اليومية وبالتعبير عن الحب، وهي لا تعلم أني مكبَّل بأغلال لا مرئية تمنعني حتى من التعبير عما أشعر به، أنا نصف إنسان يحيا دون أن يشعر، يأكل ويشرب وينام بالمهدئات والمنومات ويستيقظ ليقضي حوائجه الدنيا، لكنه لا يفكر، لا يأمل، لا يغار على ذاته ومجده الشخصي الزائل، فإن حواسه الباطنية معطَّلة، أو متوقفة.. وهو لا يدري إن كان سيعود يومًا إلى تألقه؟ أم أن بريقه قد انطفأ إلى الأبد!

أنا قليل الغضب، قليل الانفعال، قليل الإساءة، حتى بغير قصد، وإن لي صلابة في مواجهة الألم، غير أني أضعف الناس في مواجهة جرح القريب، فإن كان أقرب الناس فالجرح غائر لا يطيب.

ولكنني مع هذا كله سأظلُّ أطمح أن تواتيني قوة روحية تنقلني من العجز إلى القدرة، ومن الضعف إلى القوة، ومن اليأس والموات إلى الأمل وحب الحياة.

...

نعم لن ترتد الرصاصة المُطلَقة من جديد إلى فوهة البندقية التي أطلقَتها، ولكنها قد لا تصيب كبد الشخص الذي أُطلِقَت لتدميره، فإطلاق الرصاصة قدرٌ محض، لكن عدم إصابتها الشخص المستهدف لطف.. سأظل أطمح في لطف الله وأنتظر انقشاع الغمَّة وعودة كل عروش مجدي الزائل، بما في ذلك قلب هديَّة الذي طردتني منه شر طردة.

سأعود إلى الحياة الآن وفورًا.. سأبدأ بجمع الدُّمى القماشية البالية لبناتي وسوف أخيط كل تمزُّقاتها لعلِّي أعيد إليهنَّ البهجة باستعادة عرائسهن المفضلة.. يا ليت لي قلبًا قماشيًّا!

***

(تمت)